النَّوَازِلُ الْكُبْرَى

نِدَاءَاتٌ . . . وَتَوْجِيهَاتٌ

أبو زيد العتيبي –عفا الله عنه–

النَّوازِلُ الكُبْرَى

نِداءاتٌ . . . وَتَوْجِيهَاتٌ

كَتَبَهُ

أبُو زَيْدٍ العُتَيْبِيُّ –عَفَا اللهُ عَنْهُ– .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ للّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِيْنُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آلُ عِمْرَانَ: ١٠٢].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النِّسَاءُ: ١].

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أعمالكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} [الأَحْزَابُ: ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيْثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

اعْلَمُوا –رَحِمَكُمُ اللهُ– أَنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يُدْرِكُ أَنَّ أَهْلَنَا فِي كَثِيْرٍ مِنْ بِلادِ الإِسْلامِ الَّتِي تَنْخِرُهَا الْفِتَنُ يَمُرُّونَ بِحَالَيْنِ:

١- حَالِ افْتِرَاقٍ وَاخْتِلافٍ.

٢- وَحَالِ اسْتِضْعَافٍ.

وَلِلنَّجَاةِ مِنَ الحَالَيْنِ:

- لا بُدَّ لَهُمْ مِنْ (عَاصِمٍ) يَهْتَدُونَ بِهِ عِنْدَ الاخْتِلافِ.
- وَلا بُدَّ لَهُمْ مِنْ (عِزَّةٍ) يَخْرُجُونَ بِهَا مِنَ الاسْتِضْعَافِ.

وَهَذَانِ المَطْلَبَانِ مِنَ المَقَاصِدِ الرِّسَالِيَّةِ، قَالَ –تَعَالَى– : { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التَّوْبَةُ: ٣٣].

وَدِيْنُ الإِسْلامِ قَائِمٌ عَلَى: (الْهُدَى)، الَّذِي هُوَ: العِلْمُ النَّافِعُ، وَعَلَى: (الدِّيْنِ الحَقِّ)، الَّذِي هُوَ: العَمَلُ الصَّالِحُ، وَبِهِمَا يُظْهِرُ اللّهُ دِيْنَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ.

فَالعِلْمُ النَّافِعُ يَمْنَعُ مِنَ الضَّلالَةِ.

وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَمْنَعُ مِنَ الْغِوَايَةِ.

قَالَ الحَقُّ –سُبْحَانَهُ–: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى}[النَّجْمُ: ٢].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ –رَحِمَهُ اللّهُ–:

"نَفَى –سُبْحَانَهُ– عَنْ رَسُولِهِ –صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– الضَّلالَ المُنَافِي لِلْهُدَى، وَالغَيَّ المُنَافِي لِلرَّشَادِ فَفِي ضِمْنِ هَذَا النَّفْيِ الشَّهَادَةُ لَهُ بِأَنَّهُ عَلَى الْهُدَى وَالرَّشَادِ.

فَالْهُدَى فِي عِلْمِهِ، وَالرَّشَادُ فِي عَمَلِهِ، وَهَذَانِ الأَصْلانِ هُمَا غَايَةُ كَمَالِ العَبْدِ وَبِهِمَا سَعَادَتُهُ وَفَلاحُهُ".

(التِّبْيَانُ فِي أَقْسَامِ القُرْآنِ، ص: ١٥٠).

فَهَذِهِ الدَّعْوَةُ القَائِمَةُ عَلَى الهُدَى وَالرَّشَادِ، وَالسَّالِمَةُ مِنَ الضَّلالِ وَالغَيِّ هِيَ دَعْوَةُ الإِسْلامِ الصَّحِيْحِ.

وَأَفْضَلُ مَنْ قَامَ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ السَّلَفِيُّونَ القَائِمُونَ بِوَاجِبِهِمْ العِلْمِيِّ وَالعَمَلِيِّ مِنْ زَمَنِ الصَّحَابَةِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ– وَإِلَى يَوْمِ الدِّيْنِ.

وَحُصُولُ العِزَّةِ وَالتَّمْكِيْنِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى هَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ، فَالنَّتِيْجَةُ المُلازِمَةُ لِذَلِكَ بِلا خُلْفٍ {لِيُظْهِرَهُ} هِيَ العِزَّةُ المُبَدِدَةُ لِلاسْتِضْعَافِ {وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِيْنَ}.

وَأَكْثَرُ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ ذَلِكَ وَقْتَ الفِتَنِ وَالمِحَنِ وَالنَّوَازِلِ الكَبِيْرَةِ.

وَمُشَارَكَةً فِي بَابِ النَّصِيْحَةِ الَّتِي تُظْهِرُ (العِلْمَ النَّافِعَ)، (وَالعَمَلَ الصَّالِحَ) المَطْلُوبَ وَقْتَ الفِتَنِ وَالأَزَمَاتِ كَتَبْتُ عَدَداً مِنَ المَقَالاتِ اخْتَرْتُ مِنْهَا تِسْعَ عَشْرَةَ مَقَالَةً، ثُمَّ أَلَّفْتُ بَيْنَهَا فِي هَذَا الكِتَابِ، وَسَمَّيْتُهُ:

"النَّوَازِلُ الكُبْرَى: نِدَاءَاتٌ . . . وَتَوْجِيهَاتٌ".

وَالمَقَالاتُ هِيَ التَّالِيَةُ:

النِّدَاءُ الأَوَّلُ: مَوْقِفُ طَالِبِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ مِنَ النَّوَازِلِ الْكُبْرَى

النِّدَاءُ الثَّانِي: الخِطَابُ الشَّرْعِيُّ عِنْدَ النَّازِلَةِ، وَعُبُوْدِيَّةُ وَاجِبِ الوَقْتِ

النِّدَاءُ الثَّالِثُ: مَقَامَاتُ الْعُبُودِيَّةِ فِي النَّازِلَةِ

النِّدَاءُ الرَّابِعُ: (الدُّعَـــــــــاءُ) دَاعِي الفِطْرَةِ عِنْدَ الاضْطِرَارِ

النِّدَاءُ الْخَامِسُ: تَخَلُّفُ العُقُولِ وَأَثَرُهُ فِي الصِّرَاعَاتِ الجَارِيَةِ

النِّدَاءُ السَّادِسُ: فِطَرُ العُقَلاءِ مِنْ أُصُولِ الحِفْظِ وَالْبَقَاءِ

النِّدَاءُ السَّابِعُ: حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ الذُّلِّ وَالخُسْرَانِ وَالْهَوَانِ

النِّدَاءُ الثَّامِنُ: شَيَاطِينُ الخَرَابِ وَالمُؤَامَرَةُ

النِّدَاءُ التَّاسِعُ: الْوَحْشِيَّةُ بَيْنَ بَلاهَةِ الأَفْكَارِ وَبَلادَةِ الْهِمَمِ

النِّدَاءُ الْعَاشِرُ: الشِّعَارَاتُ الْمُزَيَّفَةُ سَبَبُ تَضْلِيلِ الأُمَّةِ وَشَقَائِهَا

النِّدَاءُ الْحَادِي عَشَرَ: مَوْقِفُ المُسْلِمِ مِن إِذَاعَةِ الشَّائِعَاتِ فِي الفِتَنِ وَالأَزَمَاتِ.

النِّدَاءُ الثَّانِي عَشَرَ: النَّازِلَةُ حَاضِنَةُ الأَهْوَاءِ

النِّدَاءُ الثَّالِث عَشَرَ: الرَّبِيعُ القُرْآنِي

النِّدَاءُ الرَّابِعَ عَشَرَ: أنا سُنِّيٌّ أولاً

النِّدَاءُ الْخَامِسَ عَشَرَ: مُقَوِّمَاتُ التَّفْكِيرِ الإِيمَانِيِّ

النِّدَاءُ السَّادِسَ عَشَرَ: الأَزْمَةُ وَالمَخْرَجُ

النِّدَاءُ السَّابِعَ عَشَرَ: أُسُّ الأُسُسِ فِي حَلِّ الأَزَمَاتِ، لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ ! ! !

النِّدَاءُ الثَّامِنَ عَشَرَ: ضَوَابِطُ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالإِيمَانِ فِي تَنْزِيلِ الأَحْكَامِ عَلَى الْوَقَائِعِ وَالأَعْيَانِ

النِّدَاءُ التَّاسِعَ عَشَرَ: وَقَفَاتُ الْعَاقِلِ فِي الْفِتَنِ وَالأَزَمَاتِ، عِبَرٌ وَعِظَاتٌ

" فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْمُبْتَدِئَ لَنَا بِنِعَمِهِ قَبْلَ اسْتِحْقَاقِهَا، الْمُدِيمَ بِهَا عَلَيْنَا مَعَ تَقْصِيرِنَا فِي الْإِتْيَانِ عَلَى مَا أَوْجَبَ مِنْ شُكْرِهِ لَهَا، الْجَاعِلَنَا فِي خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ أَنْ يَرْزُقَنَا:

- فَهْمًا فِي كِتَابِهِ،
- ثُمَّ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- وَقَوْلًا وَعَمَلًا يُؤَدِّي بِهِ عَنَّا حَقَّهُ، وَيُوجِبُ لَنَا نَافِلَةَ مَزِيدِهِ".

(الرسالة للشافعي، ص: ٢٠).

إِنْ تَجِدْ عَيْبًا فَسُدَّ الْخَلَلَا *** جَلَّ مَنْ لَا عَيْبَ فِيهِ وَعَلَا

كَتَبَهُ

أَبُو زَيْدٍ العُتَيْبِيُّ –عَفَا اللَّهُ عَنْهُ– .

٨/ صفر/ ١٤٣٩

النِّدَاءُ الأَوْلُ

مَوْقِفُ طَالِبِ العِلْمِ الشَّرْعِيِّ مِنَ النَّوَازِلِ الْكُبْرَى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّهِ وَمُصْطَفَاهُ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَفِيْ هَذَا الْمَبْحَثِ إِلْمَاحَةٌ سَرِيْعَةٌ عَلَى أَهَمِّ ضَوَابِطِ طَالِبِ الْعِلْمِ فِيْ مَوْقِفِهِ الشَّرْعِيِّ مِنَ النَّوَازِلِ الْكُبْرَى الَّتِيْ تَدْهَمُ أُمَّةَ الإِسْلامِ.

وَأَوَّلُ مَا نَبْدَأُ بِهِ تَحْلِيْلُ مُفْرَدَاتِ الْعُنْوَانِ:

١- (مَوْقِفُ) "الْمَوْقِفُ: الْمَوْضِعُ الَّذِيْ تَقِفُ فِيْهِ حَيْثُ كَانَ "(لِسَانُ الْعَرَبِ: ٩/٣٦٠).

مَأْخُوْذٌ مِنْ: وَقَفَ يَقِفُ وَقْفَاً، وَوُقُوْفَاً، وَمَوْقِفَاً.

"(وَقَفَ) الْوَاوُ وَالْقَافُ وَالْفَاءُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى تَمَكُّثٍ فِي شَيْءٍ" (مُعْجَمُ مَقَايِيْسُ اللُّغَةِ: ٦/١٣٥).

وَاصْطِلاحاً يَأْتِي لِعِدَّةِ مَعَانٍ، مِنْهَا:

- الرَّأْيُ، كمَا يُقَالُ: مَوْقِفُ فُلانٍ مِنْ كَذَا أَيْ: رَأْيُهُ فِيْهِ.
- الْمَذْهَبُ، كَمَا يُقَالُ: مَوْقِفُ الْفِرْقَةِ الْفُلانِيَّةِ مِنْ كَذَا أَيْ: مَذْهَبُهُمْ فِيْهِ.
- الْحُكْمُ، كَمَا يُقَالُ: مَوْقِفُ الإِسْلامِ مِنْ كَذَا أَيْ: حُكْمُهُ فِيْهِ.

وَهَذَا الأَخِيْرُ انْتُقِدَ، فَقَالَ بَكْرٌ أَبُوْ زَيْدٍ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: "مَوْقِفُ الإِسْلامِ مِنْ كَذَا: كَقَوْلِهِمْ: الرِّبَا وَمَوْقِفُ الإِسْلامِ مِنْهُ، السَّرِقَةُ وَمَوْقِفُ الإِسْلامِ مِنْهَا، وَهَكَذَا، وَهَذَا التَّعْبِيْرُ فِيْهِ اسْتِصْغَارٌ لِلإِسْلامِ، كَأَنَّ السَّرِقَةَ شَيْءٌ كَبِيْرٌ أَمَامَ الإِسْلامِ، وَكَأَنَّ أَحْكَامَهُ نَحْوَهَا فِيْهَا مَا فِيْهَا فَهِيَ تُنْبِئُ عَنِ الاعْتِذَارِ وَالتَّبْرِيْرِ.

لِمَاذَا لا نَقُوْلُ: حُكْمُ الإِسْلامِ فِيْ الرِّبَا؟" (مُعْجَمُ الْمَنَاهِيْ اللَّفْظِيَّةِ، ص: ٣٥٩).

وَالْمَقْصُوْدُ –هُنَا– مِنْ عِبَارَةِ: (مَوْقِفُ طَالِبِ الْعِلْمِ) أَيْ: مَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهُ وَالْعَمَلُ بِهِ.

وَحَقِيْقَةُ ذَلِكَ: هُوَ التَّكْلِيْفُ الشَّرْعِيُّ الْمُنَاطُ بِهِ.

٢- (طَالِبُ الْعِلْمِ) هُوَ مَنْ اشْتَغَلَ بِمَعْرِفَةِ مُرَادِ اللهِ -تَعَالى-، وَمُرَادِ رَسُوْلِهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيْحَةِ.

٣- (الشَّرْعِيِّ) صِفَةٌ لِلْعِلْمِ، وَهِيَ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ إِذْ الْعِلْمُ الْكَامِلُ عَلَى الْحَقِيْقَةِ لا يَكُوْنُ إِلا شَرْعِيًّا، كَمَا قَالَ -تَعَالى-: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}.

قَالَ الشَّنْقِيطِي -رَحِمَهُ اللهُ-: "وَيَكْفِيكَ مِنْ تَحْقِيرِ هَذَا الْعِلْمِ الدُّنْيَوِيِّ أَنَّ أَجْوَدَ أَوْجُهِ الْإِعْرَابِ فِي قَوْلِهِ: {يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا}، أَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ قَبْلَهُ لَا يَعْلَمُونَ، فَهَذَا الْعِلْمُ كَلَا عِلْمٍ لِحَقَارَتِهِ.

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي «الْكَشَّافِ»: وَقَوْلُهُ: يَعْلَمُونَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: لَا يَعْلَمُونَ، وَفِي هَذَا الْإِبْدَالِ مِنَ النُّكْتَةِ أَنَّهُ أَبْدَلَهُ مِنْهُ وَجَعَلَهُ بِحَيْثُ يَقُومُ مَقَامَهُ، وَيَسُدُّ مَسَدَّهُ لِيُعَلِّمَكَ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ عَدَمِ الْعِلْمِ الَّذِي هُوَ الْجَهْلُ، وَبَيْنَ وُجُودِ الْعِلْمِ الَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ الدُّنْيَا".

(أَضْوَاءُ الْبَيَانِ: ٦/ ١٦٦ – ١٦٧).

٤- (النَّوَازِلِ الْكُبْرَى).

النَّوَازِلُ فِيْ اللُّغَةِ: جَمْعُ نَازِلَةٍ، قَالَ الْخَلِيْلُ بْنُ أَحْمَدَ -رَحِمَهُ اللهُ-: "النَّازِلَةُ: الشَّدِيْدَةُ مِنَ شَدَائِدِ الدَّهْرِ تَنْزِلُ بِالْقَوْمِ وَجَمْعُهَا: النَّوَازِلُ" (٧/٣٦٧).

فِيْ الاصْطِلاحِ، تُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ:

الأَوَّلُ: مَا يُشْرَعُ لَهُ الْقُنُوْتُ مِنَ الْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ الَّتِيْ تَنْزِلُ عَلَى الأُمَّةِ. قَالَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: "وَلا قُنُوْتَ فِيْ شَيْءٍ مِنَ الصَّلَوَاتِ إِلا الصُّبْحَ إِلا أَنْ تَنْزِلَ نَازِلَةٌ فَيُقْنَتَ فِيْ الصَّلَوَاتِ كُلِّهِنَّ إِنْ شَاءَ الإِمَامُ" (الأم: ١/٢٠٥).

وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُرَادُ -هُنَا- لِكَوْنِ النَّوَازِلِ وُصِفَتْ (بِالْكُبْرَى).

الثَّانِيْ: الْمَسَائِلُ الْمُسْتَجَدَةُ الَّتِيْ لَمْ يَسْبِقْ فِيْهَا حُكْمٌ -لا نَصَّاً، وَلا اسْتِنْبَاطَاً-.

قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ -رَحِمَهُ اللهُ-: "أَدْرَكْتُ هَذَا الْبَلَدَ وَمَا عِنْدَهُمْ إِلا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، فَإِذَا نَزَلَتْ نَازِلَةٌ جَمَعَ الأَمِيْرُ لَهَا مَنْ حَضَرَ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَمَا اتَّفَقُوْا عَلَيْهِ أَنْفَذَهُ" (تَفْسِيْرُ الْقُرْطُبِيِّ: ٦/٣٣٢).

وَالْمَقْصُوْدُ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ: مَعْرِفَةُ التَّكْلِيْفِ الشَّرْعِيِّ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ الْمُوَافِقِ لِمُرَادِ اللهِ وَرَسُوْلِهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– عِنْدَ نُزُوْلِ الْمَصَائِبِ وَالشَّدَائِدِ الْعَامَةِ عَلَى الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ –أَعَزَّهَا اللهُ–.

أَهَمِّيَّةُ الْمَسْأَلَةِ:

تَظْهَرُ أَهَمِّيَّةُ الْمَسْأَلَةِ بِمَعْرِفَةِ أَمْرَيْنِ مُهِمَّيْنِ:

١– أَنَّ طُلابَ الْعِلْمِ هُمُ الْوَاسِطَةُ بَيْنَ الأُمَّةِ وَعُلَمَائِهَا؛ فَإِنْ أَحْسَنُوْا تَلَقِّيْ أَحْكَامِ النَّوَازِلِ الْكُبْرَىْ عَنِ الْعُلَمَاءِ نَجَحُوْا فِيْ الدَّعْوَةِ وَالتَّوْجِيْهِ وَالإِرْشَادِ. وَإِنْ أَسَاؤُوْا فِيْ الأَوَّلِ فَشِلُوْا فِيْ الثَّانِيْ.

٢– أَنْ يَعْرِفَ طُلابُ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ لِيْسُوْا أَهْلاً لِلْكَلامِ فِيْ هَذِهِ النَّوَازِلِ الْكُبْرَىْ؛ لِعَدَمِ أَهْلِيَّتِهِمْ وَضَعْفِ مَلَكَاتِهِمْ؛ فَعَلَيْهِمْ إِرْجَاعُ الأُمَّةِ إِلَىْ عُلَمَائِهَا.

وَيَدُلُّ عَلَى هَاتَيْنِ النُّقْطَتَيْنِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلا}[النِّسَاءُ: ٨٣].

قَالَ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"وَفِي هَذَا دَلِيْلٌ لِقَاعِدَةٍ أَدَبِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ بَحْثٌ فِي أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ يَنْبَغِي أَنْ يُوَلَّى مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ وَيُجْعَلَ إِلَى أَهْلِهِ، وَلا يُتَقَدَّمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ؛ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ وَأَحْرَى لِلسَّلامَةِ مِنَ الْخَطَأ.

وَفِيهِ النَّهْيُ عَنِ الْعَجَلَةِ وَالتَّسَرُّعِ لِنَشْرِ الأُمُورِ مِنْ حِينِ سَمَاعِهَا، وَالأَمْرُ بِالتَّأَمُّلِ قَبْلَ الْكَلامِ وَالنَّظَرِ فِيهِ، هَلْ هُوَ مَصْلَحَةٌ، فَيُقْدِمُ عَلَيْهِ الإِنسَانُ؟ أَمْ لا فَيُحْجِمَ عَنْهُ؟"

(تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: ١٩٠).

النِّدَاءُ الثَّانِي

الخِطَابُ الشَّرْعِيُّ عِنْدَ النَّازِلَةِ، وَعُبُودِيَّةُ وَاجِبِ الوَقْتِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الْحَمْدُ للهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّهِ وَمُصْطَفَاهُ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ الْعَبْدَ لَهُ مَقَامَاتٌ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ بِحَسَبِ الْحَوَادِثِ، وَالْوَقَائِعِ الَّتِي تَمُرُّ بِهِ. وَالْمُوَفَّقُ مِنَ الْعِبَادِ مَنْ قَامَ (بِعُبُودِيَّةِ وَاجِبِ وَقْتِهِ) عَنْدَ كُلِّ نَازِلَةٍ بِمَا يُنَاسِبُهَا؛ لأَنَّهَا الْمَقْصُودُ الأَعْظَمُ مِنَ الابْتِلاءِ لِمَا يَتَضَمَّنُهُ الْقِيَامُ بِوَاجِبِ الْوَقْتِ مِنْ صِدْقِ دَعْوَى الإِيْمَانِ.

قَالَ –تَعَالَى–: {الم، أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}[٢٩/٣٠].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"وَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعالَى- لا بُدَّ أَنْ يَبْتَلِيَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِين بِحسَبِ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الإِيْمَان، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيح:

"أَشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِياءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلابَةٌ زِيدَ فِي الْبَلاءِ"

...

إِلَى أَنْ قَالَ:

{فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} أَيْ: الَّذِينَ صَدَقُوا فِي دَعْوَاهُمُ الإِيمَانَ مِمَّنْ هُوَ كَاذِبٌ فِي قَوْلِهِ وَدَعْوَاهُ.

وَاللّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَمَا لَمْ يَكُنْ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ. وَهَذَا مُجْمَعٌ عَلَيْهِ عِنْدَ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ".

(تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ: ٦/١٦٣).

وَالْمَطْلُوبُ مِنَ الْعِبَادِ حَالَ الابْتِلاءِ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ —تَعَالى— بِصِدْقٍ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالْحَالِ، كَمَا قَالَ —سُبْحَانَهُ—: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}.

وَهَذَا الرُّجُوعُ لَهُ مَرَاحِلُ بِحَسَبِ حَالِ الْعَبْدِ؛ لأَنَّ كُلَّ رَاجِعٍ إِلَى مَطْلُوبٍ:

لابُدَّ لَهُ مِنْ (طَرِيقٍ مُوْصِلٍ إِلَى الْمَطْلُوبِ).

وَلابُدَّ لَهُ مِنْ (سُلُوكِ هَذَا الطَّرِيقِ).

وَلابُدَّ لَهُ مِنْ (دَوَامِ الاسْتِقَامَةِ فِي الطَّرِيقِ) حَتَّى لا يَنْحَرِفَ عَنْهُ.

فَمَنْ حَقَّقَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتِ ظَفَرَ بِمَطْلُوبِهِ.

وَكَذَلِكَ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ لابُدَّ لِلْعَبْدِ فِيهِ مِنْ طَرِيقٍ مُوْصِلٍ إِلَيْهِ، وَلابُدَّ لَهُ مِنْ سُلُوكِ هَذَا الطَّرِيقِ، وَلابُدَّ لَهُ مِنَ الاسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ.

وَيَجْمَعُ هَذِهِ الْمَعَانِي قَوْلُهُ —تَعَالَى—: {وَأَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}[الأَنْعَامُ: ١٥٣].

١) أَمَّا الطَّرِيقُ الْمُوصِلُ إِلَى اللهِ –تَعَالَى– فَهُوَ دِينُهُ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ؛ (الإِسْلامُ الْمَحْضُ).

فَالَّذِي لا يَعْرِفُ الطَّرِيقَ –لاشْتِبَاهِهِ بالطُّرُقِ الْبِدْعِيَّةِ– الْوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُعَيِّنَ الطَّرِيقَ الْحَقَّ مِنْ بَيْنِ طُرُقِ الضَّلالِ؛ حَتَّى يَضْمَنَ صِحةَ الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ –تَعَالَى–.

وَهَذَا الطَّرِيقُ بَيِّنٌ لا يَشْتَبِهُ إِلا عَلَى جَاهِلٍ بِحَقِيقَةِ دِينِ اللهِ –تَعَالَى– الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي الدَّلائِلِ وَالْمَسَائِلِ.

فَالدَّلائِلُ الَّتِي يُسْتَقَى مِنْهَا الْحَقُّ هِيَ مَصَادِرُ التَّشْرِيعِ الَّتِي لا تَحْتَمِلُ الْخَطَأَ لِعِصْمَتِهَا، وَتَشْمَلُ:

- (الْكِتَابَ).
- (وَالسُّنَّةَ).
- (وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ).

قَالَ النَّبِيُّ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-:

"افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتْ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلا وَاحِدَةً".

قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللّهِ؟

قَالَ: "الْجَمَاعَةُ"، وَفِي رِوَايَةٍ: "مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي".

(حَدِيثٌ صَحِيحٌ).

وَأَمَّا الْمَسَائِلُ: فَهِيَ الْمَطَالِبُ الْكُلِّيَّةُ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا بِنَاءُ الإِسْلامِ وَتَشْمَلُ:

- (التَّوْحِيدَ).
- (وَالْمُتَابَعَةَ).
- (وَالْيَوْمَ الآخِرِ).

فَالتَّوْحِيدُ هُوَ: (شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللّهُ).

وَالْمُتَابَعَةُ هِيَ: (شَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللّهِ).

فَعَلَى الدَّاعِيَةِ الْحَكِيمِ أَنْ يُرْجِعَ النَّاسَ إِلَى اللهِ –تَعَالَى– وَهُوَ مُرَاعٍ لِحَالِ الْمَدْعُوِّ، فَإِنْ كَانَ لا يَعْرِفُ الطَّرِيقَ وَجَبَ بَيَانُهُ لَهُ بِبَيَانِ مَسَائِلِهِ، وَدَلائِلِهِ.

فَتَعْيِينُ الطَّرِيقِ ضَرُورَةٌ حَتْمِيَةٌ لِمَنْ طَلَبَ الظَّفَرَ بِالْمَقْصُودِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً}.

وَإِنْ كَانَ الْمَدْعُوُّ يَعْرِفُ الطَّرِيقَ حُثَّ عَلَى سُلُوكِهِ وَالسَّيْرِ فِيهِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى رَبِّهِ.

٢) وَأَمَّا سُلُوكُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فيَنْبَنِي عَلَى قَاعِدَةِ:

(الْعِبَادَةِ وَالإِعَانَةِ).

فَالْعِبَادَةُ تَقُومُ عَلَى أَرْكَانِ الْعُبُودِيَّةِ (مُحَرِّكَاتِ الْقُلُوبِ): (الْمَحَبَّةِ)، (وَالرَّجَاءِ)، (وَالْخَوْفِ).

وَذَلِكَ أَنَّ الْقَلْبَ مَلِكٌ وَالْجَوَارِحَ جُنُودُهُ، وَالْجُنْدِيُّ لا يَنْبَعِث لِلْعَمَلِ إلا حِينَ يَأْمُرُهُ سَيِّدُهُ؛ فَأَصْلُ عَمَلِ الْجُنْدِ تَابِعٌ لأَمْرِ الْمَلِكِ.

وَالْمَلِكُ لا يَتَحَرَّكُ لِلْمَطْلُوبِ إلا إِذَا أَحَبَّهُ، وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُهَيِّجُ عَلَى الْمَحَبَّةِ إِحْسَانُ الْمَحْبُوبِ وَإِنْعَامِهِ، وَلِذَلِكَ بَدَأَتْ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ بِـ{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

ثُمَّ قَدْ يَكْسَلُ الْقَلْبُ عَنِ السَّيْرِ إِلَى الْمَحْبُوبِ، فَيَحْتَاجُ إِلَى مَا يُرَغِّبُهُ فِي السَّيْرِ وَيَحُثُّهُ عَلَيْهِ وَيَبْعَثُ فِيهِ دَاعِيَ الأَمَلِ، وَحُبَّ اللِّقَاءِ، وَلِهَذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}.

(فَالرَّجَاءُ) يَبْعَثُ الْقَلْبَ إِلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لأَنَّهَا قُرُبَاتٌ إِلَى اللهِ –تَعَالَى–.

ثُمَّ قَدْ يَعْرِضُ لِلْقَلْبِ دَاعِي الشَّهْوَةِ فَيمْنَعُهُ مِنْ مُتَابَعَةِ السَّيْرِ، وَيَشْغَلُهُ بِالْمَلاذِ وَالْمُلْهِيَاتِ حَتَّى يُقْعِدَهُ عَنِ السَّيْرِ فَيَحْتَاجَ إِلَى مَا يَزْجُرُهُ، وَيُخَوِّفُهُ عَنِ التَّخَلُّفِ، وَلِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}.

(فَالْخَوْفُ) يَمْنَعُهُ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمُنْكَرَاتِ.

فَإِذَا تَمَكَّنَتْ هَذِهِ الأُسُسُ مِنَ الْقَلْبِ، قَامَ بِنَاءُ الْعُبُودِيَّةِ فِي شُمُوخِ الْعِزِّ، فَكُلَّمَا عَلا بُنْيَانُ عُبُودِيَّتِهِ زَادَ عِزُّهُ وَشَرَفُهُ، وَلِهَذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ}.

وَلَمَّا كَانَتْ أَعْمَالُ الْعُبُودِيَّةِ تَابِعَةً لِلإِرَادَةِ، وَالْقُدْرَةِ تَعَيَّنَ طَلَبُ الإِعَانَةِ، فَقَالَ: {وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}. كَمَا فِي قَوْلِهِ: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}.

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ مُرِيدٍ لِشَيْءٍ قَدْ يَعْرِضُ لَهُ مَا يَصْرِفُهُ عَنْ مُرَادِهِ فَيَنْحَرِفُ سَيْرُهُ إِلَى غَيْرِ مَطْلُوبِهِ، أَوْ يَعْرِضُ لَهُ مَا يُضْعِفُ إِرَادَتَهُ فَيَضْعُفُ سَيْرُهُ؛ فَلِهَذَا تَعَيَّنَ طَلَبُ (الإِخْلاصِ)، (وَالصِّدْقِ).

فَفِي الإِخْلاصِ: تَوْحِيدُ الْمَطْلُوبِ، وَعَلامَتُهُ أَنْ لا يُرِيدَ بِعَمَلِهِ إلا وَجْهَ اللهِ –تَعَالَى.

وَفِي الصِّدْقِ: تَوْحِيدُ الطَّلَبِ، وَعَلامَتُهُ الْجِدُّ فِي طَلَبِهِ بِلا فُتُورٍ، أَوْ تَسْوِيفٍ، أَوْ تَهَاوُنٍ.

فَمَنِ اسْتَجْمَعَ: (الْمَحَبَّةَ، وَالرَّجَاءَ، وَالْخَوْفَ، وَالإِخْلاصَ، وَالصِّدْقَ). وَأَعَانَهُ اللهُ فَقَدْ وَصَلَ.

فَالْمَدْخَلُ عَلَى قَلْبِ مَنْ عَرَفَ الطَّرِيقَ لَكِنَّه ضَعُفَ عَنِ السَّيْرِ فِيهِ أَنْ يُنَبَّهَ عَلَى ضَرُورَةِ قَاعِدَةِ: (الْعِبَادَةِ، وَالإِعَانَةِ).

فَقَوَامُ الْعِبَادَةِ؛ بِتَحْقِيقِ:

الْمَحَبَّةِ، وَالرَّجَاءِ، وَالْخَوْفِ، –إِخْلاصاً، وَصِدْقاً–.

وَالإِعَانَةُ هِيَ تَوْفِيقُ اللهِ الْعَبْدَ لِلْعِبَادَةِ،

كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[الإنسانُ: ٢٨–٢٩].

لِهَذَا تَعَيَّنَ طَلَبُ هِدَايَةِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مِنَ اللهِ —سُبْحَانَهُ—، فَقَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}.

٣) وَأَمَّا الاسْتِقَامَةُ عَلَى الطَّرِيقِ فَتَكُونُ:

بِاسْتِدَامَةِ الْهِدَايَةِ الْعِلْمِيَّةِ —بَيَاناً—، وَالْعَمَلِيَّةِ —تَوْفِيقاً—.

إِنَّ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ:

أَنَّ مِنْ تَمَامِ الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ —سُبْحَانَهُ— الثَّبَاتَ عَلَى دِينِهِ، وَدَوَامَ السَّيْرِ عَلَى صِرَاطِهِ، وَذَلِكَ بِتَجَنُّبِ: (الْبِدَعِ وَالشُّبُهَاتِ) الَّتِي هِيَ سُبُلُ الشَّيَاطِينِ الْمُضِلَّةِ، كَمَا قَالَ —تَعَالَى—: {وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}.

فَإِذَا فَتَحَ الْعَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ تَتَبُّعِ الْمُتَشَابِهَاتِ؛ فَإِنَّهُ يَقَعُ فِي الْبِدَعِ وَالضَّلالاتِ الَّتِي تَحْرِفُهُ عَنْ طَرِيقِهِ، وَتُخْرِجُهُ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

وَنَجَاةُ الْعَبْدِ فِي أَمْرَيْنِ:

الأَوَّل: الرُّجُوعِ إِلَى الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ عِنْدَ النَّوَازِلِ وَغيْرِهَا، فَيَضْمَنُ صِحَّةَ الْفَهْمِ وَرَجَاحَتَهُ.

الثَّانِي: اتِّبَاعِ النُّصُوصِ الْمُحْكَمَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَيَضْمَنُ صِحَّةَ الْمَدْلُولِ وَوُضُوحَهُ.

وَفِي الْكَلامِ الْمَأْثُورِ عَنِ الإِمَامِ أَحْمَدَ –رَحِمَهُ اللهُ– دَلالَةٌ وَاضِحَةٌ عَلَى مَا سَبَقَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: " أُصُولُ الإِسْلامِ أَرْبَعَةٌ: (دَالٌ)، (وَدَلِيلٌ)، (وَمُبَيِّنٌ)، (وَمُسْتَدِلٌّ). فَالدَّالُ هُوَ اللهُ، وَالدَّلِيلُ هُوَ الْقُرْآنُ، وَالْمُبَيِّنُ هُوَ الرَّسُولُ، قَالَ اللهُ –تَعَالَى–: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِم}، وَالْمُسْتَدِلُّ هُمْ أُولُو الْعِلْمِ وَأُولُو الأَلْبَابِ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ" (النُّبُوَاتُ، ص: ٤٢).

وَاللهُ الْمُوَفِّقُ لا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَلا رَبَّ سِوَاهُ.

النِّدَاءُ الثَّالِثُ

مَقَامَاتُ الْعُبُودِيَّةِ فِي النَّازِلَةِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِينِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَفِي قَوْلِهِ –تَعَالَى-: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[الأعراف: ١٦٨]. بَيَانٌ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الابْتِلاءِ بِالنَّوَازِلِ رُجُوعُ الْعِبَادِ إِلَى اللهِ –تَعَالَى– إِلَى دِيْنِهِ وَشَرْعِهِ.

وَذَلِكَ بِتَجْرِيدِ التَّوْحِيدِ –إِخْلاصاً–.

وَتَحْقِيقِ الْمُتَابَعَةِ –طَاعَةً–.

وَالاعْتِصَامِ بِاللّهِ –سُبْحَانَهُ– تَوَكُّلاً، وَتَضَرُّعاً –رَغْبَةً وَرَهْبَةً–، وَبِحَبْلِهِ الْمَتِين –يَقِيناً وَانْقِيَاداً–.

وَالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ.

فَالْبَلاءُ كَالنُّذُرِ لِلْغَافِلِينَ، وَ(التَّوْبَةُ النَّصُوحُ) هِيَ الْمَقْصِدُ الأَصْلِيِّ مِنَ الْبَلاءِ وَتَكُونُ بِأُمُورٍ:

١) بِتَعْيِينِ طَرِيقِ الْعُبُودِيَّةِ.

٢) وَبِسُلُوكِ الطَّرِيقِ بِالْقِيَامِ بِوَظَائِفِ الْعُبُودِيَّةِ.

٣) وَبِحَسْمِ مَادَةِ الْغَفْلَةِ الْمَانِعَةِ مِنْ تَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ.

وَدَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ —تَعَالَى-: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}[الأَنْعَامُ: ١٥٣].

فَفِي قَوْلِهِ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً} تَعْيِينُ طَرِيقِ الْعُبُودِيَّةِ.

وَأُصُولُ هَذَا الطَّرِيقِ مَعْرِفَةُ مَصْدَرِ الشَّرِيعَةِ (الْوَحْيِ) -كِتَاباً وَسُنَّةً مُنْضَبِطاً فَهْمُهُمَا بِفَهْمِ سَلَفِ الأُمَّةِ-، وَمَعْرِفَةُ مَقَاصِدِهَا: التَّوْحِيدِ وَالْمُتَابَعَةِ وَالتَّزْكِيَةِ.

وَفِي قَوْلِهِ: {فَاتَّبِعُوهُ} سُلُوكُ هَذَا الطَّرِيقِ الْمُحَمَّدِيِّ بِقِيَامِهِ بِوَظَائِفِ الْعُبُودِيَّةِ —فِعْلاً لِلْمَأْمُورِ وَتَرْكاً لِلْمَحْظُورِ— فَيُدِيمُ ذِكْرَهُ لِرَبِّهِ مَعَ الْمَحَبَّةِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ وَالإِخْلاصِ وَالصِّدْقِ وَتَمَامِ التَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ وَاللُّجُوءِ إِلَى اللهِ —تَعَالَى—.

وَفِي قَوْلِهِ: {وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} حَسْمٌ لِمَادَةِ الْغَفْلَةِ بِقَطْعِ عَلائِقِ الْبِدَعِ وَالْمُحْدَثَاتِ مِنَ الشُّبَهِ وَالْمُتَشَابِهَاتِ، وَمَا يَؤُولُ إِلَيْهَا مِنَ الشَّهَوَاتِ.

وَلِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْمَعَانِي

لا بُدَّ لِلْعَبْدِ عِنْدَ النَّازِلَةِ مِنْ سُلُوكِ سِتَّةِ مَقَامَاتٍ تَنْجَلِي عِنْدَهَا كُلُّ مِحْنَةٍ. بَلْ تَنْقَلِبُ إِلَى مِنْحَةٍ، وَفِيهَا مِنْ تَفْصِيلِ مَا أَجْمَلْنَاهُ أَعْظَمُ فَائِدَةٍ.

الْمَقَامُ الأَوَّلُ

الْمَفْزَعُ إِلَى اللهِ –وَحْدَهُ– فِي الشَّدَائِدِ وَالنَّوَازِلِ دُوْنَ غَيْرِهِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ –رَحِمَهُ اللهُ– :

"فَقَدْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ أَنَّ مَا يَنْزِلُ بِالْمُسْلِمِينَ مِنْ النَّوَازِلِ فِي الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ: مِثْلُ دُعَائِهِمْ عِنْدَ الِاسْتِسْقَاءِ لِنُزُولِ الرِّزْقِ وَدُعَائِهِمْ عِنْدَ الْكُسُوفِ وَالِاعْتِدَادِ لِرَفْعِ الْبَلَاءِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ إنَّمَا يَدْعُونَ فِي ذَلِكَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ قَطُّ أَنْ يَرْجِعُوا بِحَوَائِجِهِمْ إلَى غَيْرِ اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–.

بَلْ كَانَ الْمُشْرِكُونَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَدْعُونَهُ بِلَا وَاسِطَةٍ فَيُجِيبُهُمْ اللَّهُ أَفَتَرَاهُمْ بَعْدَ التَّوْحِيدِ وَالْإِسْلَامِ لَا يُجِيبُ دُعَاءَهُمْ إلَّا بِهَذِهِ الْوَاسِطَةِ الَّتِي مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ؟ قَالَ –تَعَالَى–: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إلَى ضُرٍّ مَسَّهُ}"

(مَجْمُوعُ الفَتَاوَى: ٢٧/٩٨–٩٩).

الْمَقَامُ الثَّانِي

الْمَفْزَعُ إِلَى ذِكْرِ اللهِ -تَعَالَى-

-الْمُتَضَمِّنِ مَحَبَّتَهُ وَرَجَاءَهُ وَخَوْفَهُ- عِنْدَ النَّوَازِلِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"وَالذِّكْرُ (مَنْشُورُ الْوَلَايَةِ) الَّذِي مَنْ أُعْطِيَهُ اتَّصَلَ، وَمَنْ مُنِعَهُ عُزِلَ، وَهُوَ قُوْتُ قُلُوبِ الْقَوْمِ الَّذِي مَتَّى فَارَقَهَا صَارَتْ الأَجْسَادُ لَهَا قُبُوراً، وَعِمَارَةُ دِيَارِهِمُ الَّتِي إِذَا تَعَطَّلَتْ عَنْهُ صَارَتْ بُوراً، وَهُوَ سِلاحُهُمُ الَّذِي يُقَاتِلُونَ بِهِ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ، وَمَاؤُهُمُ الَّذِي يُطْفِئُونَ بِهِ الْتِهَابَ الطَّرِيقِ، وَدَوَاءُ أَسْقَامِهِم الَّذِي مَتَّى فَارَقَهُمُ انْتَكَسَتْ مِنْهُمُ الْقُلُوبُ وَالسَّبَبُ الْوَاصِلُ وَالْعِلاقَةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَلامِ الْغُيُوب.

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكِم *** فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانَاً فَنَنْتَكِسُ

بِهِ يَسْتَدْفِعُونَ الآفَاتِ، وَيَسْتَكْشِفُونَ الْكُرُبَاتِ، وَتَهُونُ عَلَيْهِم بِهِ الْمُصِيبَاتُ إِذَا أَظْلَمَهُم الْبَلاءُ فَإِلَيْهِ مَلجَؤُهُم، وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ النَّوَازِلُ فَإِلَيْهِ مَفْزَعُهُمْ.

فَهُوَ رِيَاضُ جَنَتِهِمْ الَّتِي فِيْهَا يَتَقَلَّبُونَ، وَرُؤُوسُ أَمْوَالِ سَعَادَتِهِم الَّتِي بِهَا يَتَّجِرُونَ.

يَدَعُ القَلْبَ الْحَزِينَ ضَاحِكاً مَسْرُوراً، وَيُوصِلُ الذَّاكِرَ إِلَى الْمَذْكُورِ. بَلْ يَدَعُ الذَّاكِرَ مَذْكُوراً".

(مَدَارِجُ السَّالِكِينَ: ٢/ ٤٢٣).

الْمَقَامُ الثَّالِثُ

الْمَفْزَعُ فِي النَّوَازِلِ إِلَى (الْوَحْيِ).

رَوَى سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا– كَانَتْ تَقُولُ:

"لا بَأْسَ بِأَنْ يُمَسَّ الطِّيبُ عِنْدَ الإِحْرَامِ"

قَالَ: فَدَعُوتُ رَجُلاً وَأَنَا جَالِسٌ بِجَنْبِ ابْنِ عُمَرَ، فَأَرْسَلْتُهُ إِلَيْهَا، وَقَدْ عَلِمْتُ قَوْلَهَا، وَلَكِنْ أَحْبَبْتُ أَنْ يَسْمَعَهُ أَبِي فَجَاءَنِي رَسُولِي، فَقَالَ:

إِنَّ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا– تَقُولُ: "لا بَأْسَ بِالطِّيبِ عِنْدَ الإِحْرَامِ فَأَحِبَّ مَا بَدَا لَكَ".

قَالَ: فَسَكَتَ ابْنُ عُمَرَ".

وَكَذَا سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ يُخَالِفُ أَبَاهُ وَجَدَّهُ فِي ذَلِكَ، لِحَدِيثِ عَائِشَةَ.

قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"أَخْبَرَنَا عَمْرُو بْنُ دِيْنَارٍ، عَنْ سَالِمٍ، أَنَّهُ ذَكَرَ قَوْلَ عُمَرَ فِي الطِّيبِ، ثُمَّ قَالَ: قَالَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- فَذَكَرَ الْحَدِيثَ،

قَالَ سَالِمٌ: "سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَحَقُّ أَنْ تُتَّبَعَ".

قَالَ الْحَافِظُ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّ الْمَفْزَعَ فِي النَّوَازِلِ إِلَى السُّنَنِ، وَأَنَّهُ مُسْتَغْنًى بِهَا عَنْ أَرَاءِ الرِّجَالِ، وَفِيْهَا الْمَقْنَعُ".

(الْفَتْحُ: ٣/٢٩٨).

الْمَقَامُ الرَّابِعُ

الرُّجُوعُ إِلَى العُلَمَاءِ عِنْدَ النَّوَازِلِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ– :

"العَالِمُ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَهُوَ الْمُجْتَهِدُ فِي أَحْكَامِ النَّوَازِلِ يقْصِدُ فِيهَا مُوافقةَ الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ حَيْثُ كَانَتْ.

وَلا يُنَافِي اجْتِهَادُهُ تَقْلِيدَهُ لِغَيْرِهِ –أَحْيَانًا– فَلا تَجِدُ أَحَداً مِنَ الأَئِمَّةِ إِلا وَهُوَ مُقَلِّدٌ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ فِي بَعْضِ الأَحْكَامِ.

وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ وَرَضِيَ عَنْهُ– فِي مَوْضِعٍ مِنَ الحَجِّ قُلْتُهُ تَقْلِيداً لِعطَاءٍ.

فَهَذَا النَّوْعُ الَّذِي يُسَوِّغُ لَهُم الإِفْتَاءُ، وَيُسَوِّغُ اسْتِفْتَاؤُهُم وَيَتَأَدَّى بِهِمُ فَرْضُ الاجْتِهَادِ".

(إِعْلامُ الْمُوَقِّعِينَ: ٤/٢١٢).

الْمَقَامُ الخَامِسُ

الْمَفْزَعُ إِلَى الصَّبْرِ عَلَى أَدَاءِ وَاجِبِ الْوَقْتِ فِي النَّازِلَةِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"وَالأَفْضَلُ فِي وَقْتِ نُزُولِ النَّوَازِلِ وَأَذَاةِ النَّاسِ لَكَ أَدَاءُ (وَاجِبِ الصَّبْرِ) مَعَ (خُلْطَتِكَ بِهِمْ) دُونَ (الهَرَبِ مِنْهُم)؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ لِيَصْبِرَ عَلَى أَذَاهُم أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي لا يُخَالِطُهُمْ وَلا يُؤْذُونَه.

وَالأَفْضَلُ (خُلْطَتُهُم فِي الخَيْرِ) فَهِيَ خَيْرٌ مِن اعْتِزَالِهِم فِيْهِ، (وَاعْتِزَالُهُم فِي الشَّرِّ) فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْ خُلْطَتِهِم فِيْهِ.

فَإِنْ عَلِمَ أَنَّهُ إِذَا خَالَطَهُم أَزَالَهُ أَوْ قَلَّلَهُ فَخُلْطَتُهُم حِينَئِذٍ أَفْضَلُ مِن اعْتِزَالِهِم.

فَالأَفْضَلُ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحَالٍ إِيثَارُ مَرْضَاةِ اللّهِ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ وَالحَالِ وَالاشْتِغَالِ بِوَاجِبِ ذَلِكَ الوَقْتِ وَوَظِيفَتِهِ وَمُقْتَضَاهُ".

(مَدَارِجُ السَّالِكِينَ: ١/٨٩).

الْمَقَامُ السَّادِسُ

الْمَفْزَعُ إِلَى العِبَادَةِ امْتِثَالاً لِلأَوَامِرِ وَتَرْكَاً لِلْمُحَرَّمَاتِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ–:

"العَبْدُ –دَائِماً– مُتَقَلِّبٌ بَيْنَ (أَحْكَامِ الأَوَامِرِ)، (وَأَحْكَامِ النَّوَازِلِ)، فَهُوَ مُحْتَاجٌ. بَلْ مُضْطَرٌّ:

- إِلَى (العَوْنِ) عِنْدَ الأَوَامِرِ.
- وَإِلَى (اللُّطْفِ) عِنْدَ النَّوَازِلِ.

وَعَلَى قَدْرِ قِيَامِهِ بِالأَوَامِرِ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ اللُّطْفِ عِنْدَ النَّوَازِلِ.

- فَإِنْ كَمَّلَ القِيَامَ بِالأَوَامِرِ ظَاهِراً وَبَاطِناً نَالَهُ اللُّطْفُ ظَاهِراً وَبَاطِناً.
- وَإِنْ قَامَ بِصُوَرِهَا دُونَ حَقَائِقِهَا وَبَوَاطِنِهَا نَالَهُ اللُّطْفُ فِي الظَّاهِرِ، وَقَلَّ نَصِيبُهُ مِنَ اللُّطْفِ فِي البَاطِنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَمَا (اللُّطْفُ البَاطِنُ)؟ فَهُوَ مَا يَحْصُلُ لِلْقَلْبِ عِنْدَ النَّوَازِلِ مِنَ السَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ وَزَوَالِ القَلَقِ وَالاضْطِرَابِ وَالجَزَعِ.

فَيَسْتَخْذِي بَيْنَ يَدَيِّ سَيِّدِهِ ذَلِيلاً لَهُ مُسْتَكِيناً نَاظِراً إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ سَاكِناً إِلَيْهِ بِرُوحِهِ وَسِرِّهِ قَدْ شَغَلَهُ مُشَاهَدَةُ لُطْفِهِ بِهِ عَنْ شِدَّةِ مَا هُوَ فِيهِ مِنَ الأَلَمِ وَقَدْ غَيَّبَهُ عَنْ شُهُودِ ذَلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِحُسْنِ اخْتِيَارِهِ لَهُ، وَأَنَّهُ عَبْدٌ مَحْضٌ يُجْرِي عَلَيهِ سَيِّدُهُ أَحْكَامَهُ رَضِيَ أَوْ سَخِطَ؛

فَإِنْ رَضِيَ نَالَ الرِّضَا.

وَإِنْ سَخِطَ فَحَظُّهُ السُّخْطُ.

فَهَذَا اللُّطْفُ البَاطِنُ ثَمَرَةُ تِلْكَ الْمُعَامَلَةِ البَاطِنَةِ يَزِيدُ بِزِيَادَتِهَا وَيَنْقُصُ بِنُقْصَانِهَا"

(الفَوَائِدُ، ص: ٢٠٣).

وَالْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ

وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِيْنِ

وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين

النِّدَاءُ الرَّابِعُ

(الدُّعَــــــــاءُ)

دَاعِي الفِطْرَةِ عِنْدَ الاضْطِرَارِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ، وَصَلَّى اللّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِيْنِ، وَعَلَى آلِهِ، وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ مِنَ المَعْلُومِ مِنَ الدِّيْنِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ اللّهَ –تَعَالَى– قَدْ فَطَرَ العِبَادَ مُحْتَاجِيْنَ مُضْطَرِّيْنَ لِمَا فِيهِ مَصْلَحَتُهُمْ مِنْ جَلْبِ المَنَافِعِ لَهُمْ، وَدَفْعِ المَضَارِّ عَنْهُمْ، وَلا يَسُدُّ حَاجَتَهُمْ، وَلا يَرْفَعُ ضَرُورَتَهُمْ إِلا رَبُّهُمْ الَّذِي خَلَقَهُمْ، كَمَا قَالَ –سُبْحَانَهُ–: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[فَاطِرٌ: ١٥].

بَيَانُ صُوَرِ فقْرِ النَّاسِ إِلَى اللهِ –تعَالَى–.

قَالَ العَلامَةُ المُفَسِّرُ السِّعْدِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ–:

"يُخَاطِبُ –تَعَالَى– جَمِيْعَ النَّاسِ، وَيُخْبِرُهُمْ بِحَالِهِمْ، وَوَصْفِهِمْ، وَأَنَّهُمْ (فُقَرَاءُ إِلَى اللّهِ) مِنْ جَمِيْعِ الْوُجُوهِ:

– فُقَرَاءُ فِي إِيْجَادِهِمْ، فَلَوْلا إِيْجَادُهُ إِيَّاهُمْ، لَمْ يُوجَدُوا.

– فُقَرَاءُ فِي إِعْدَادِهِمْ بِالْقُوَى وَالأَعْضَاءِ وَالجَوَارِحِ، الَّتِي لَوْلا إِعْدَادُهُ إِيَّاهُمْ بِهَا، لَمَا اسْتَعَدُّوا لأَيِّ عَمَلٍ كَانَ.

– فُقَرَاءُ فِي إِمْدَادِهِمْ بِالأَقْوَاتِ وَالأَرْزَاقِ وَالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، فَلَوْلا فَضْلُهُ وَإِحْسَانُهُ وَتَيْسِيرُهُ الأُمُورَ، لَمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ وَالنِّعَمِ شَيْءٌ.

– فُقَرَاءُ فِي صَرْفِ النِّقَمِ عَنْهُمْ، وَدَفْعِ المَكَارِهِ، وَإِزَالَةِ الكُرُوبِ وَالشَّدَائِدِ. فَلَوْلا دَفْعُهُ عَنْهُمْ، وَتَفْرِيجُهُ لِكُرُبَاتِهِمْ، وَإِزَالَتُهُ لِعُسْرِهِمْ، لاسْتَمَرَّتْ عَلَيْهِمُ المَكَارِهُ وَالشَّدَائِدُ.

- فُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي تَرْبِيَتِهِمْ بِأَنْوَاعِ التَّرْبِيَةِ، وَأَجْنَاسِ التَّدْبِيرِ.
- فُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي تَأَلُّهِهِمْ لَهُ، وَحُبِّهِمْ لَهُ، وَتَعَبُّدِهِمْ، وَإِخْلاصِ العِبَادَةِ لَهُ -تَعَالَى-، فَلَوْ لَمْ يُوَفِّقْهُمْ لِذَلِكَ لَهَلَكُوا، وَفَسَدَتْ أَرْوَاحُهُمْ، وَقُلُوبُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ.
- فُقَرَاءُ إِلَيْهِ فِي تَعْلِيمِهِمْ مَا لا يَعْلَمُونَ، وَعَمَلِهِمْ بِمَا يُصْلِحُهُمْ، فَلَوْلا تَعْلِيمُهُ، لَمْ يَتَعَلَّمُوا، وَلَوْلا تَوْفِيقُهُ، لَمْ يَصْلُحُوا.

فَهُمْ فُقَرَاءُ بِالذَّاتِ إِلَيْهِ، بِكُلِّ مَعْنًى، وَبِكُلِّ اعْتِبَارٍ، سَوَاءٌ شَعَرُوا بِبَعْضِ أَنْوَاعِ الفَقْرِ أَمْ لَمْ يَشْعُرُوا،

وَلَكِنَّ الْمُوَفَّقَ مِنْهُمْ، الَّذِي لا يَزَالُ يُشَاهِدُ فَقْرَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، وَيَتَضَرَّعُ لَهُ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ لا يَكِلَهُ إِلَى نَفْسِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَنْ يُعِينَهُ عَلَى جَمِيعِ أُمُورِهِ، وَيَسْتَصْحِبَ هَذَا المَعْنَى فِي كُلِّ وَقْتٍ.

فَهَذَا أَحْرَى بِالإِعَانَةِ التَّامَةِ مِنْ رَبِّهِ وَإِلَهِهِ، الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ بِهِ مِنَ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا".

(تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: ٦٨٧).

لا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ عِنِ الفَقْرِ التَّامِّ

وَهُنَا حَقِيْقَةٌ لا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهَا وَهِيَ أَنَّ العِبَادَ لَوْ اجْتَمَعُوا جَمِيعَاً – أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمْ – وَتَعَاوَنُوا –وَهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ– عَلَى تَحْقِيقِ مَصْلَحَتِهِمْ، أَوْ مَصْلَحَةِ أَحَدِهِمْ، وَلَمْ يَتَوَانَ أَيٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي بِذْلِ كُلِّ مَا فِي وُسْعِهِ لِتَحْقِيقِ غَرَضِهِمْ فَلَنْ يَنْفَعُوا أَنْفُسَهُمْ بِأَيِّ شَيْءٍ، وَلَنْ يَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ أَيَّ شَيْءٍ، وَذَلِكَ لأَنَّهُمْ فُقَرَاءُ مُحْتَاجُونَ لا يَمْلِكُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ شَيْئَاً.

وَهَذَا الوَصْفُ مُلازِمٌ لَهُمْ لا يَنْفَكُ عَنْهُمْ {وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ} ، فَحَاجَتُهُمْ ضَرُورَةٌ، وَفَاقَتُهُمْ تَامَّةٌ، وَيُصَدِّقُهُ قَوْلُهُ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ:

"وَاعْلَمْ: أنّ الأُمّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بشَيءٍ لَمْ يَنْفعُوك إلاّ بشيءٍ قَدْ كَتَبهُ اللّهُ لَكَ ، وَإنِ اجتمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوك بشيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاّ بشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ".

(صَحِيحُ الجَامِعِ، برقم: ٧٩٥٧).

وَالمَقْصُودُ: أَنَّ العَبْدَ إِذَا وَقَعَ فِي كَرْبٍ أَوْ بَلاءٍ، فَلا بُدَّ لَهُ —ضَرُورَةً— مِنْ مَلْجَأٍ يَرْكَنُ إِلَيْهِ فِي تَفْرِيجِ كَرْبِهِ، وَكَشْفِ بَلائِهِ، وَلَيْسَ لَهُ إِلا رَبُّهُ الَّذِي خَلَقَهُ، فَلُجُوؤُهُ إِلَى اللهِ —تَعَالَى— أَمْرٌ مَرْكُوزٌ فِي الفِطْرَةِ الإِنْسَانِيَّةِ؛ لأَنَّ ذَلِكَ هُوَ المُتَّفِقُ مَعَ فَقْرِهِ، كَمَا قَالَ —تَعَالَى—: {وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً}[يُونسُ: ١٢]، وَقَوْلُهُ: {وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ}[الزُّمَرُ: ٨]، وَقَوْلُهُ: {فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا}[الزُّمَرُ: ٤٩]. إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الآيَاتِ.

فَهَذِهِ الآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ هِيَ الَّتِي تَقْصِدُ رَبَّهَا عِنْدَ الشِّدَّةِ وَالكَرْبِ؛ لِفَقْرِهَا وَضَرُورَتِهَا.

فَمَا أَحْوَجَنَا أَنْ نَرْفَعَ أَكُفَّ الدُّعَاءِ إِلَى اللهِ —لَيْلاً وَنَهَاراً— مُخْلِصِيْنَ لَهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِنَا.

رَبَّاهُ أَنْتَ المُنَادَى بِهِ فِي كُلِّ نَازِلَةٍ * وَأَنْتَ مَلْجَأُ مَنْ ضَاقَتْ بِهِ الحِيَلُ

اشْتِرَاكُ الخَلِيقَةِ كُلِّهَا فِي الفَزَعِ إِلَى اللهِ عِنْدَ الشِّدَّةِ

فَكُلُّ الخَلَيْقَةِ تَدْعُو اللّهَ عِنْدَ شِدَّتِهَا: المُؤْمِنِ وَالكَافِرِ وَالبَرِّ وَالفَاجِرِ، وَهذَا فَقْرٌ لِرُبُوبِيَّةِ اللّهِ —تَعَالَى—.

وَاللّهُ يَكْشِفُ عَنْ كُلِّ العِبَادِ ضَرُورَتَهُمْ، وَيُفَرِّجُ كُرَبَهُمْ؛ لأَنَّهُ لا رَبَّ لَهُمْ غَيْرُهُ.

فَكَمَا أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْهُمْ إِلا اللّهُ، وَلَمْ يَرْزُقْهُمْ إِلا اللّهُ، فَكَذَلِكَ لا يَسْتَجِيْبُ دُعَاءَهُمْ إِلا اللّهُ، كَمَا قَالَ —سُبْحَانَهُ—: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} [النَّمْلُ: ٦٢].

وَهَذَا الاضْطِرَارُ لا يُوجِبُ مَدْحاً وَلا ذَمَّاً؛ لأَنَّهُ فَقْرٌ إِلَى رُبُوبِيَّةِ اللّهِ، فَكَمَا أَنَّ رِزْقَ اللّهِ يَشْمَلُ الْمُؤْمِنَ وَالكَافِرَ، وَلا يُوجِبُ مَحَبَّةَ مَنْ يَرْزُقُهُ، فَكَذَلِكَ اسْتِجَابَةُ دُعَاءِ الْمُضْطَرِّ لا تَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةِ اللّهِ لَهُ؛ لأَنَّهُ فَقْرٌ إِلَى الرُّبُوبِيَّةِ الَّتِي يَدْخُلُ فِيْهَا كُلُّ الخَلْقِ، {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ}[النَّحْلُ : ٥٣].

وَغَايَةُ مَا يَطْلُبُهُ الْمُضْطَرُّونَ مِنَ الكُفَّارِ عِنْدَ دُعَائِهِمْ (أَنْ يُرْفَعَ اضْطِرَارُهُمْ)، وَلِهَذَا إِذَا زَالَ عَنْهُمُ اضْطِرَارُهُمْ كَفَرُوا بِاللّهِ —تَعَالَى— وَأَشْرَكُوا، كَمَا قَالَ —سُبْحَانَهُ—: {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}[العَنْكَبُوتُ : ٦٥].

الْفَقْرُ الْمَحْبُوبُ إِلَى اللهِ –تَعَالَى–

وَأَمَّا (الْمُؤْمِنُ)، (الْمُوَحِّدُ)

– فَهُوَ يَلْجَأُ إِلَى رَبِّهِ لِكَشْفِ كُرْبَتِهِ –اضْطِرَارًا–،

– وَإِلَى مَحَبَّتِهِ رَغْبَةً وَرَهْبَةً –اخْتِيَارًا–؛

فَيَدْعُو رَبَّهُ؛ لِيَكْشِفَ كُرَبَهُ؛ لأَنَّهُ (مَخْلُوقُهُ).

ويُحِبُّهُ، وَيَرْجُوهُ، وَيَخَافُهُ؛ لأَنَّهُ (عَبْدُهُ).

وَهَذَا الفَقْرُ فِيْهِ السَّعَادَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالأُخْرَوِيَّةُ. كَمَا أَثْنَى اللّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ: {إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانُوا لَنا خاشِعِينَ}[الأَنْبِيَاءُ: ٩٠].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ -تَعَالَى- فِي الآيَةِ: {أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ} بِاسْمِ (اللهِ) دُوْنَ اسْمِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِيُؤْذِنَ بِنَوْعَيِّ الفَقْرِ -فَإِنَّهُ كَمَا تَقَدَّمَ نَوْعَانِ:

- فَقْرٌ إِلَى (رُبُوبِيَّتِهِ) وَهُوَ فَقْرُ المَخْلُوقَاتِ بِأَسْرِهَا.

- وَفَقْرٌ إِلَى (أُلُوهِيَّتِهِ) وَهُوَ فَقْرُ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَعِبَادِهِ الصَّالِحِيْنَ، وَهَذَا هُوَ (الفَقْرُ النَّافِعُ)"

(طَرِيقُ الهِجْرَتَيْنِ، ص: ٢٧).

وَالمَطْلُوبُ مِنَّا -وَنَحْنُ نَعِيشُ حَالَ شِدَّةٍ، وَكَرْبٍ، وَمِحْنَةٍ، وَفِتْنَةٍ-: أَنْ نَفْزَعَ إِلَى اللهِ -تَعَالَى- بِالتَّضَرُّعِ، وَالدُّعَاءِ فَزَعَ مَنْ لا حِيْلَةَ لَهُ إِلا بِرَبِّهِ -عِبَادَةً، وَتَوَكُّلاً-.

{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطَّلاقُ: ٣].

أَحْوَالُ الصَّحَابَةِ فِي الدُّعَاءِ

وَتَأَمَّلْ: "لَمَّا كَانَ الصَّحَابَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- أَعْلَمَ الأُمَّةِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَفْقَهَهُمْ فِي دِينِهِ كَانُوا أَقْوَمَ بِهَذَا السَّبَبِ، وَشُرُوطِهِ، وَآدَابِهِ مَنْ غَيْرِهِمْ.

وَكَانَ عُمَرُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَسْتَنْصِرُ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَكَانَ (أَعْظَمَ جُنْدِهِ).

وَكَانَ يَقُولُ لأَصْحَابِهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ-: "لَسْتُمْ تُنْصَرُونَ بِكَثْرَةٍ، وَإِنَّمَا تُنْصَرُونَ مِنَ السَّمَاءِ".

وَكَانَ يَقُولُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "إِنِّي لا أَحْمِلُ هَمَّ الإِجَابَةِ، وَلَكِنْ هَمَّ الدُّعَاءِ، فَإِذَا أُلْهِمْتُمْ الدُّعَاءُ فَإِنَّ الإِجَابَةَ مَعَهُ".

وَأَخَذَ الشَّاعِرُ هَذَا المَعْنَى فَنَظَمَهُ، فَقَالَ:

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ * * * مِنْ جُودِ كَفَيْكَ مَا عَوَّدْتَنِي الطَّلَبَا

فَمَنْ أُلْهِمَ الدُّعَاءَ، فَقَدْ أُرِيدَ بِهِ الإِجَابَةُ، فَإِنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ- يَقُولُ: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ}[غَافِرٌ: ٦٠]، وَقَالَ: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}[البَقَرَةُ: ١٨٦]".

(الدَّاءُ وَالدَّوَاءُ، ص: ٢٨).

أَيُّهَا العَبْدُ الضَّعِيفُ المُسْتَضْعَفُ،

عِنْدَكَ رُكْنٌ عَظِيْمٌ فَأْوِ إِلَيْهِ:

١- **إِنَّهُ اللَّهُ** ذُوْ العِزَّةِ وَالجَبَرُوتِ، الوَاحِدُ القَهَّارُ، الَّذِي لا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ.

عَظِيْمُ البَطْشِ، شَدِيْدُ المِحَالِ، قَوِيُّ الأَخْذِ يَأْخُذُ الظَّالِمَ أَخْذَ عَزِيْزٍ مُقْتَدِرٍ. {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}[هُودٌ: ١٠٢].

٢- **إِنَّهُ اللَّهُ** ذُوْ الحِكْمَةِ وَالعِلْمِ، يُصَرِّفُ عِبَادَهُ كَيْفَ يَشَاءُ، بِأَحْسَنِ تَصْرِيفٍ وَأَتَمِّ تَدْبِيرٍ.

لَهُ الحِكْمَةُ البَالِغَةُ، وَالحُجَّةُ السَّاطِعَةُ.

الخَيْرُ بِيَدَيْهِ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْهِ.

مَا شَاءَ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ.

قَدَّرَ المَقَادِيْرَ كُلَّهَا: حُلْوَهَا وَمُرَّهَا؛ خَيْرَهَا وَشَرَّهَا.

٣- **إِنَّهُ اللَّه** ذُوْ الرَّحْمَةِ الوَاسِعَةِ، أَرْحَمُ بِالعِبَادِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ بِهِمْ، وَهُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ.

عَمَّ جُودُهُ، وَعَظُمَ نَوَالُهُ، وَلا إِلَهَ غَيْرُهُ. {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ}[النَّحْلُ: ٥٣].

إِحْسَانُهُ عَمِيْمٌ، وَفَضْلُهُ دَائِمٌ، وَبِرُّهُ مُتَوَاصِلٌ، وَرَحْمَتُهُ غَامِرَةٌ؛ يُعِزُّ وَيُشَافِي، يَنْصُرُ وَيَرْزُقُ.

يَكْشِفُ البَلْوَى، وَيَرْفَعُ الشَّكْوَى، وَإِلَيْهِ –وَحْدَهُ– المُشْتَكَى.

فَلْجَأْ إِلَيْهِ وَتَضَرَّعْ بَيْنَ يَدَيْهِ، بُثَّ هُمُومَكَ وَأَحْزَانَكَ إِلَيْهِ {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[يُوسُفُ: ٨٦].

أُدْعُ رَبَّكَ تَضَرُّعاً، وَمَرِّغْ جَبْهَتَكَ لَهُ ذُلاً {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ}[النَّمْلُ: ٦٢].

لا إِلَهَ غَيْرُهُ وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

جَرِّدْ قَلْبَكَ مِنَ التَّطَلُّعِ إِلَى غَيْرِهِ، وَالتَّشَوُّفِ إِلَى أَحَدٍ سِوَاهُ.

وَحَقِّقِ التَّوْحِيْدَ –مُضْطَراً وَمُخْتَاراً– حَتَّى يَبْتَهِجَ القَلْبُ بِالإِيمَانِ، وَيَسْتَنِيرَ بِهُدَى القُرْآنِ.

{وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ} صَبْراً عَلَى البَلاءِ، وَاحْتِمَالاً لِلأَذَى.

{يَهْدِ قَلْبَهُ} : بِالرِّضَا عَنْ رَبِّهِ، وَبِمَعْرِفَةِ وَاجِبِ وَقْتِهِ، حَتَّى يَمْتَلِئَ بِشْراً وَسُرُوراً، وَأُنْساً وَفَرَحاً؛ فَتَرْتَفِعَ بِذَلِكَ دَرَجَاتُهُ وَتُكَفَّرَ عَنْهُ سَيِّئَاتُهُ، وَيَبْلُغَ مَنَازِلَ الأَبْرَارِ الْمُقَرَّبِيْنَ بِرِفْقَةِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيْقِيْنَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِيْنَ.

{وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطَّلاقُ : ٣].

أَتَهْزَأُ بِالدُّعَاءِ وَتَزْدَرِيهِ * * * وَمَا تَدْرِي بِمَا صَنَعَ الدُّعَاءُ

سِهَامُ اللَّيْلِ لا تُخْطِي وَلَكِنْ * * * لَهَا أَمَدٌ وَلِلأَمَدِ انْقِضَاءُ

النِّدَاءُ الْخَامِسُ

تخلُّفُ العُقُولِ وأَثَرُهُ فِي الصِّرَاعَاتِ الجارِيَة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الحَمْدُ للّهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَيَقُولُ الحَقُّ –تَعَالَى-: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأَعْرَافُ: ١٧٩].

العَقْلُ مِنْ أَجلِ النِّعَمِ الَّتِي وَهَبَهَا اللّهُ –تَعَالَى– لِلْخَلْقِ؛ لأَنَّ حَقِيقَتَهُ أَنَّهُ "اسْمٌ يَقَعُ عَلَى المَعْرِفَةِ بِسُلُوكِ الصَّوَابِ وَالعِلْمِ بِاجْتِنَابِ الخَطَأ" (مُخْتَصَرُ رَوْضَةِ العُقَلاءِ، ص: ٢١).

فَهُوَ كَمَا قَالَ عُمَرُ ابْنُ الخَطَّابِ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-:

"أَصْلُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ، وَحَسَبُهُ دِينُهُ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ".

"وَقَالَ بَعْضُ البُلَغَاءِ: "خَيْرُ المَوَاهِبِ العَقْلُ، وَشَرُّ المَصَائِبِ الجَهْلُ".

(أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّيْنِ، ص: ٥).

فَكُلُّ عَبْدٍ لَمْ يَسْتَعْمِلْ عَقْلَهُ فِي فَهْمِ وَتَدَبُّرِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لِيَعْرِفَ مَصَالِحَهُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنيَوِيَّةِ يُصِيبُهُ السَّفَهُ وَالخَبَلُ عَلَى قَدْرِ مَا فَاتَهُ مِنْ تَدَبُّرِ الكَلامِ وَفَهْمِهِ وَفِقْهِهِ. كَمَا قَالَ –تَعَالَى-: {وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ} "وَهُوَ الخَبَالُ، وَالضَّلالُ" {عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ} [يُونُس: ١٠٠]. كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ (تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ: ٤/ ٢٩٨).

إِذَا تَمَّ عَقْلُ المَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ *** وَتَمَّتْ أَيَادِيْهِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلٌ تَبَيَّنَ نَقْصُهُ *** وَلَوْ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيراً عَطَاؤُهُ

وَلِهَذَا قَالَ الحَسَنُ البصْرِيِّ –رَحِمَهُ اللهُ-: "مَا تَمَّ دِينُ عَبْدٍ قَطُّ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ" (مُخْتَصَرُ رَوْضَةِ العُقَلاءِ، ص: ٢٢).

وَالوَاجِبُ عَلَى العَبْدِ أَنْ يَتعَاهَدَ عَقْلَهُ، فَيُنَمِّيَهُ، وَيَسْتَعْمِلَهُ فِيمَا يُوجِبُ لَهُ زِيَادَةَ الحِنْكَةِ مِنَ النَّظَرِ فِي مَعَانِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالنَّظَرِ فِي الآيَاتِ الكَوْنِيَّةِ، وَالاعْتِبَارِ بِأَحْوَالِ الأُمَمِ "فَكَمَا أَنَّ الأَجْسَادَ تَمُوتُ عِنْدَ فَقْدِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَكَذَلِكَ العُقُولُ إِذَا فَقَدَتْ قُوتَهَا مِنَ الحِكْمَةِ مَاتَتْ" (مُخْتَصَرُ رَوْضَةِ العُقَلاءِ، ص: ٢١).

"وَالَّذِي يَزْدَادُ بِهِ العَاقِلُ مِنْ نَمَاءِ عَقْلِهِ هُوَ التَّقَرُّبُ مِنْ أَشْكَالِهِ وَالتَّبَاعُدُ مِنْ أَضْدَادِهِ كَمَا قَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: "جَالِسُوا الأَلِبَّاءَ . . . . فَإِنَّ العُقُولَ تُلَقِّحُ العُقُولَ".

وَلا يَكُونُ المَرْءُ بِالمُصِيبِ فِي الأَشْيَاءِ حَتَّى تَكُونَ لَهُ خِبْرَةٌ بِالتَّجَارِبِ، كَمَا قَالَ الحَكَمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: كَانَتْ العَرَبُ تَقُولُ: "العَقْلُ التَّجَارِبُ".

وَأَقْبَحُ مَا فِي المَرْءِ قِلَّةُ عَقْلِهِ وَسَفَهُ رَأْيِهِ.

قَالَ ابْنُ حِبَّانَ -رَحِمَهُ اللهُ-: "وَمَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ أَغْلَبَ خِصَالِ الخَيْرِ عَلَيْهِ أَخَافُ أَنْ يَكُونَ حَتْفُهُ فِي أَقْرَبِ الأَشْيَاءِ إِلَيْهِ".

وَلا رَيْبَ أَنْ مَا يَحْصُلُ فِي السَّاحَةِ مِنَ الفِتَنِ نَاشِئٌ مِنْ قُصُورِ إِدْرَاكِ بَعْضِ المُتَصَدِّرِينَ مِنْ أَصْحَابِ القَرَارِ أَوْ مِمَّنْ يُؤَثِّرُونَ عَلَى نَمَطِ الصِّرَاعِ، وَذَلِكَ مُتَوَلِّدٌ مِنْ نَقْصِ عُقُولِهِمْ فِي مَعْرِفَةِ الخَلَلِ المُوجِبِ لِلْفَسَادِ، وَمِنْهُ:

١) ضَعْفُ الإِيمَانِ بِاللهِ –تَعَالَى– المُتَضَمِّنِ لِتَوحِيدِهِ وَإِفْرَادِهِ بِالعِبَادَةِ، وَالَّذِي نَشَأَ عَنْهُ تَفَشِّي الشِّرْكِ كَتَعْظِيمِ القُبُورِ وَالحَلِفِ بِغَيْرِ اللهِ وَانْتِشَارِ السَّحَرَةِ وَالمُشَعْوِذِينَ.

٢) ضَعْفُ الاسْتِعَانَةِ بِاللهِ –تَعَالَى– وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَحْدَهُ، وَاللُّجُوءِ إِلَيْهِ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالمِحَنِ، وَالاعْتِمَادِ عَلَيْهِ فِي كَشْفِ الكُرَبِ وَرَفْعِ الضَّرُورَاتِ.

٣) ضَعْفُ تَعْظِيمِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَالتَّحَاكُمِ إِلَى الشَّرِيعَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مِمَّا أَدَّى إِلَى انْتِشَارِ البِدَعِ وَالأَهْوَاءِ وَالمُحْدَثَاتِ وَنِسْبَتِهَا إِلَى الدِّيْنِ.

٤) ضَعْفُ الانْقِيَادِ لِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ بِامْتِثَالِ الأَوَامِرِ وَتَرْكِ النَّوَاهِي مِمَّا أَدَّى إِلَى التَّفْرِيطِ فِي الوَاجِبَاتِ وَالانْهِمَاكِ فِي المُحَرَّمَاتِ.

٥) حُبُّ الدُّنْيَا وَالتَّعَلُّقِ بِمَلاذِّهَا وَشَهَوَاتِهَا مِنَ المَنَاصِبِ وَالأَمْوَالِ وَالنِّسَاءِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ تَفَشِّي الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالفُسُوقِ وَالفُجُورِ.

٦) مُعَالَجَةُ الوَاقِعِ بِعَقْلِيَّةٍ غَيْرِ وَاقِعِيَّةٍ وَلا شَرْعِيَّةٍ؛ فَإِنَّ مُنْتَهَى السَّفَهِ أَنْ يَخْلُوَ الرَّأْيُ مِنْ مَعْرِفَةِ الوَاقِعِ وَالوَاجِبِ فِيهِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"وَلا يَتَمَكَّنُ المُفْتِي وَلا الحَاكِمُ مِنَ الفَتْوَى وَالحُكْمِ بِالحَقِّ إِلا بِنَوْعِينِ مِنَ الفَهْمِ

أَحَدُهُمَا: فَهْمِ الوَاقِعِ وَالفِقْهِ فِيهِ وَاسْتِنْبَاطِ عِلْمِ حَقِيقَةِ مَا وَقَعَ بِالقَرَائِنِ وَالأَمَارَاتِ وَالعَلامَاتِ حَتَّى يُحِيطَ بِهِ عِلْمًا.

وَالنَّوْعِ الثَّانِي: فَهْمِ الوَاجِبِ فِي الوَاقِعِ وَهُوَ فَهْمُ حُكْمِ اللهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ فِي هَذَا الوَاقِعِ ثُمَّ يُطَبِّقُ أَحَدَهُمَا عَلَى الآخَرِ؛ فَمَنْ بَذَلَ جُهْدَهُ وَاسْتَفْرَغَ وُسْعَهُ فِي ذَلِكَ لَمْ يُعْدَمْ أَجْرَينِ أَوْ أَجْرًا".

(إِعْلامُ المُوَقِّعِينَ: ١/٨٧ – ٨٨).

فَعَدَمُ إِدْرَاكِ هَذِهِ الحَقَائِقِ الشَّرْعِيَّةِ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ العُقُولِ وَسَفَهِ الآرَاءِ وَطَيْشِ الأَحْلامِ.

لَنْ يَسْمَعَ الأَحْمَقُ مِنْ وَاعِظٍ ... فِي رَفْعِهِ الصَّوْتَ وَفِي هَمْسِهِ
لَنْ تَبْلُغَ الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ ... مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

وَالوَاجِبُ المُتَعَيِّنُ الاهْتِدَاءُ بِالوَحْيِ الرَّبَّانِيِّ وَالعَمَلُ بِالتَّعْلِيمِ القُرْآنِيِّ: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} [الإِسْرَاءُ: ٩].

فَكُلُّ خُطَّةٍ مَوْضُوعَةٍ لِلْخَلاصِ مِنْ هَذَا الوَاقِعِ لا تَسْتَنِيرُ بِهَدْيِ القُرْآنِ فَهِيَ طَرِيقٌ مَعْوَجَّةٌ تَقُودُ أَصْحَابَهَا إِلَى مَطَاحِنَ مُحْرِقَةٍ أَوْ دَهَالِيزَ مُظْلِمَةٍ.

فَالوَاجِبُ عَلَى مَنْ يَعْتَلُونَ مَنَابِرَ القِيَادَةِ وَالتَّوْجِيهِ أُمُورٌ مُهِمَّةٌ، مِنْهَا:

١. ارْجَاعُ النَّاسِ إِلَى دِينِ اللهِ –تَعَالَى– بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ وَكَثْرَةِ الاسْتِغْفَارِ؛ فَإِنَّ الفَلاحَ مَقْرُونٌ بِذَلِكَ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النُّورُ: ٣١].

٢. إِقَامَةُ التَّوْحِيدِ وَقَمْعُ الشِّرْكِ، وَنَشْرُ السُّنَّةِ وَقَمْعُ البِدَعِ، وَبِنَاءُ الأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ وَالقَضَاءُ عَلَى الرَّذِيلَةِ وَمُحَارَبَةُ كُلِّ صُوَرِ الفَسَادِ، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ} [الحَجُّ: ٤١].

قَالَ الشَّنْقِيطِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"وَفِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ}. دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا وَعْدَ مِنَ اللهِ بِالنَّصْرِ إِلَّا مَعَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ. فَالَّذِينَ يُمَكِّنُ اللهُ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَيَجْعَلُ الكَلِمَةَ فِيهَا وَالسُّلْطَانَ لَهُمْ، وَمَعَ ذَلِكَ لَا يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَلَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَلَا يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ، وَلَا يَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ فَلَيْسَ لَهُمْ وَعْدٌ مِنَ اللهِ بِالنَّصْرِ، لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ حِزْبِهِ، وَلَا مِنْ أَوْلِيَائِهِ الَّذِينَ وَعَدَهُمْ بِالنَّصْرِ، بَلْ هُمْ حِزْبُ الشَّيْطَانِ وَأَوْلِيَاؤُهُ، فَلَوْ طَلَبُوا النَّصْرَ مِنَ اللهِ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ وَعَدَهُمْ إِيَّاهُ، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الأَجِيرِ الَّذِي يَمْتَنِعُ مِنْ عَمَلِ مَا أُجِرَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَطْلُبُ الأُجْرَةَ، وَمَنْ هَذَا شَأْنُهُ فَلَا عَقْلَ لَهُ".

(أَضْوَاءُ البَيَانِ: ٥/٢٦٦).

٣. الحِنْكَةُ فِي الرَّأْيِ بِكَثْرَةِ المُشَاوَرَةِ، وَتَرْكِ العُجْبِ بِالنَّفْسِ المُفْضِي إِلَى الاسْتِبْدَادِ بِالرَّأْيِ. وَاللهُ يَقُولُ: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} [الشُّورَى: ٣٨].

رَأْيُ الجَمَاعَةِ لا تَشْقَى البِلادُ بِهِ ** رُغْمَ الخِلافِ وَرَأْيُ الفَرْدِ يُشْقِيهَا

٤. التَّوَرُّعُ عَنْ دِمَاءِ المُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ، وَعَدَمُ الاسْتِخْفَافِ بِذَلِكَ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عليكم حَرَامٌ" (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

٥. لا يَجُوزُ تَصَدُّرُ الجُهَّالِ وَالحَمْقَى وَالأَشْرَارِ وَلا تَقْدِيمُهُمْ؛ لأَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُونَ. وَالوَاجِبُ تَقْدِيمُ أَهْلِ العِلْمِ وَالعَقْلِ.

تُهْدَى الأُمُورُ بِأَهْلِ الرَّأْيِ مَا صَلَحَتْ *** فَإِنْ تَوَلَّتْ فَبِالأَشْرَارِ تَنْقَادُ
إِذَا تَوَلَّى سُرَاةُ النَّاسِ أَمْرَهُمُ *** نَمَى عَلَى ذَاكَ أَمْرُ القَوْمِ فَازْدَادُوا

وكما قِيلَ: عَدُوٌّ عَاقِلٌ خَيْرٌ مِنْ صَدِيقٍ جَاهِلٍ.

رَوَى أُولُوا الأَخْبَارِ *** عَنْ رَجُلٍ سَيَّارِ

أَبْصَرَ فِي صَحْرَاء *** فَسِيْحَةِ الأَرْجَاء

دُبَّاً عَظِيماً مُوثَقَا *** فِي سَرْحَةٍ مُعَلَّقَا

يَعْوِي عُوَاءَ الكَلْبِ *** مِنْ شِدَّةٍ وَكَرْبِ

فَأَدْرَكَتْهُ الشَّفَقَة *** عَلَيْهِ حَتَّى اطْلَقَه

وَحَلَّهُ مِنْ قَيْدِه *** لأَمْنِهِ مِنْ كَيْدِه

وَنَامَ تَحْتَ الشَّجَرَة *** مَنَام مَنْ قَدْ ضَجَّرَه

طُولُ الطَّرِيقِ وَالسَّفَر *** فَنَامَ مِنْ فَرْطِ الضَّجَر

فَجَاءَ ذَاكَ الدُّبُّ *** عَنْ وَجْهِهِ يَدُّبُّ

وَقَالَ ذَاكَ الخِلُّ *** جَفَاهُ لا يَحِلُّ

انْقَذَنِي مِنْ أَسْرِي *** وَفَكَّ قَيْدَ عُسْرِي

فَحَقُّهُ أَنْ أَرْصُدَه *** مِنْ كُلِّ سُوْءٍ قَصَدَه

فَأَقْبَلَتْ ذُبَابَة *** تَرِنُ كَالرَّبَابَةَ

فَوَقَعَتْ لِحَيْنَه *** عَلَى شِفَارِ عَيْنِه

فَجَاشَ غَيْظُ الدُّبِّ *** وَقَالَ لا وَرَبِّي

لا أَدعُ الذُّبَابَة *** تَسُومُهُ عَذَابَا

فَأَسْرَعَ الدَّيِيبَ *** لِصَخْرَةٍ قَرِيبَة

فَقَلَّهَا وَأَقْبَلا *** يَسْعَى إِلَيْهِ عَجِلا

حَتَّى إِذَا حَاذَاهُ *** صَكَّ بِهَا مَحْذَاهُ

لِيَقْتُلَ الذُّبَابَة *** قَتْلا بِلا أَرَابَه

فَرَضَّ مِنْهُ الرَّاسَ *** وَفَرَّقَ الأَضْرَاسَ

وَأَهْلَكَ الخَلِيلَ *** بِقَصْدِهِ الجَلِيلَ

فَهَذِهِ الرِّوَايَة *** تَنْهَى عَنِ الغِوَايَة

فِي طَلَبِ الصَّدَاقَة *** عِنْدَ أُولِي الحَمَاقَة

وَلا هَادِيَ إِلا اللهُ.

النِّدَاءُ السَّادِسُ

فِطَرُ العُقَلاءِ مِنْ أُصُولِ الحِفْظِ وَالبَقَاءِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الحَمْدُ للهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ البَلايَا، وَأَشَدِّ الرَّزَايَا ذَهَابُ العَقْلِ، وَطَيْشُ الحِلْمِ، فَإِذَا كَانَ العَقْلُ ضَعِيفاً وَالفِتْنَةُ شَدِيدَةً صَارَ الوَاقِعُ مَرِيراً مُؤْلِماً تُحَرَّفُ فِيهِ الأَدْيَانُ، وَتَهْلِكَ الأَبْدَانُ ، وَيَخْرُبَ العُمْرَانُ.

وَالعَقْلُ الرَّشِيدُ هُوَ الأَصْلُ فِي نَجَاةِ العَبْدِ مِنَ المَهَالِكِ، فَإِذَا ضُمَّ لَهُ نُورُ الوَحْيِ مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَمُلَ نِصَابُ السَّلامَةِ مِنَ الآفَاتِ وَالوُرْطَاتِ وَالنَّدَامَاتِ كُلِّهَا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

فَإِنَّ جَوْدَةَ القَرِيحَةِ وَفَرَطَ الذَّكَاءِ وَسُرْعَةَ البَدِيهَةِ فِي مَعْرِفَةِ مَآلاتِ الأَشْيَاءِ مِمَّا يَتَمَادَحُ بِهَا النَّاسُ، لِمَا تُفْضِي إِلَيْهِ مِنْ حُسْنِ الاخْتِيَارِ.

فَقَدْ حَكَى الأَصْمَعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فقَالَ: قُلْتُ لِغُلامٍ حَدَثٍ مِنْ أَوْلادِ العَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَأَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلاحَةٍ: أَيسُرُّك أَنْ يَكُونَ لَكَ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَأَنْت أَحْمَقُ؟ قَالَ: لا وَاللّهِ. قَالَ: فَقُلْتُ: لِمَ؟ قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَجْنِي عَلَيَّ حُمْقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي، وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي" (أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّيْن، ص: ٩).

فَالعقلُ نِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ تَحُولُ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ الإِقْدَامِ عَلَى الشَّهَوَاتِ إِذَا قَبُحَتْ، وَالمَفَاسِدِ إِذَا كَثُرَتْ، وَالآرَاءِ إِذَا أَظْلَمَتْ.

وَقَدْ حَذَّرَنَا نَبِيُّنَا -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ فِتَنٍ تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ تُسْلَبُ فِيهَا العُقُولُ مِنْ أَصْحَابِهَا، فَيَعْظُمُ فِي ذَاكَ الزَّمَنِ السَّفَهُ وَالطَّيْشُ وَالخَبَلُ وَالضَّلالُ.

فَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللّهِ -صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ: "إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ الهَرْجُ، قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: القَتْلُ، إِنَّهُ لَيس بِقَتْلِكُمُ المُشْرِكِينَ، وَلَكِنْ قَتْلُ بَعْضِكُمْ بَعْضًا: حَتَّى يَقْتُلَ الرَّجُلُ جَارَهُ، وَيَقْتُلَ أَخَاهُ، وَيَقْتُلَ عَمَّهُ، وَيَقْتُلَ ابْنَ عَمِّهِ. قَالُوا: وَمَعَنَا عُقُولُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ إِنَّهُ لَتُنْزَعُ عُقُولُ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيَخْلُفُ لَهُ هَبَاءً مِنَ النَّاسِ، يَحْسَبُ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ"(السِّلْسِلَةُ الصَّحِيْحَةُ: ١٦٨٢).

وَسَلْبُ العَقْلِ مِنَ النَّاسِ بِسَبَبِ دَاءٍ خَطِيرٍ، وَآفَةٍ عَظِيمَةٍ هِيَ (الْهَوَى): وَحَقِيقَتُهُ حُبُّ النَّفْسِ وَتَقْدِيمُ رَأْيِهَا عَلَى أَخْبَارِ الشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا، وَمُرَادِهَا عَلَى أَوَامِرِهَا وَنَوَاهِيهَا.

وَأَخْطَرُ مَا فِي الْهَوَى تَقْدِيمُ الرَّأْيِ عَلَى الشَّرْعِ؛ فَهُوَ الدَّاءُ العُضَالُ الَّذِي بِسَبَبِهِ تُرَاقُ الدِّمَاءُ وَتُسْفَكُ، وَتُسْتَبَاحُ الْمُحَرَّمَاتُ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَعْرَاضِ وَتُنْتَهَكُ.

وَسَبَبُ ذَلِكَ ذَهَابُ العُقُولِ.

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "سَيَخْرُجُ فِي أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمِ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الكَلَبُ بِصَاحِبِهِ، وَلا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلا مِفْصَلٌ إِلا دَخَلَهُ" (صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ رقم: ٤٨).

فَهُوَ دَاءٌ مِنْ نَوْعِ الجُنُونِ يُصِيبُ أَهْلَ الْهَوَى.

قَالَ الشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"مَثَلُ الَّذِي يَنْظُرُ فِي الرَّأْيِ ثُمَّ يَتُوبُ مِنْهُ مَثَلُ الْمَجْنُونِ الَّذِي عُولِجَ حَتَّى بَرِئَ" (جَامِعُ بَيَانِ العِلْمِ وَفَضْلِهِ، ص: ٢٠٣٤).

وَقَالَ الشَّاطِبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"فَأَهْلُ الْأَهْوَاءِ إِذَا اسْتَحْكَمَتْ فِيهِمْ أَهْوَاؤُهُمْ لَمْ يُبَالُوا بِشَيْءٍ، وَلَمْ يعدُّوا خِلَافَ أَنْظَارِهِمْ شَيْئًا، وَلَا رَاجعُوا عُقُولَهُمْ مُرَاجَعَةَ مَنْ يَتَّهِمُ نَفْسَهُ وَيَتَوَقَّفُ فِي مَوَارِدِ الْإِشْكَال -وَهُوَ شَأْنُ الْمُعْتَبَرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعُقُول- وَهَؤُلَاءِ صِنْفٌ مِنْ أَصْنَافِ مَن اتَّبعَ هَوَاهُ وَلَمْ يَعْبَأْ بِعَذْلِ العَاذِلِ فِيْهِ، وَثَمَّ أَصْنَافٌ أُخَرُ يَجْمَعُهُمْ مع هَؤُلَاءِ إِشْرَابُ الْهَوَى فِي قُلُوبِهِمْ، حَتَّى لا يُبَالُوا بِغَيْرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ"(الاعْتِصَامُ: ٣/٢٢٢).

وَهَذَا مُنْتَهَى السَّفَهِ وَالخَبَالِ.

وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-:

"أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَيْن: اتِّبَاعَ الْهَوَى، وَطُولَ الأَمَلِ؛ فَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الحقِّ. وَطولَ الأَمَلِ يُنْسِي الآخِرَةَ".

(أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّين، ص: ١٧).

وَالدَّوَاءُ النَّافِعُ لِأَدْوَاءِ الأَهْوَاءِ كُلِّهَا لُزُومُ طَرِيقِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ فَإِنَّ أَعْظَمَ مَا يَقْمَعُ الْهَوَى وَيُنْمِي العَقْلَ لُزُومُ السُّنَّةِ وَاقْتِفَاءُ الآثَارِ النَّبَوِيَّةِ.

"قَالَ شُرَيْحٌ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"إِنَّ السُّنَّةَ قَدْ سَبَقَتْ قِيَاسَكُمْ، فَاتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ، فَإِنَّكَ لَنْ تَضِلَّ مَا أَخَذْتَ بِالأَثَرِ" ...

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى مَالِكٍ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ.

فَقَالَ لَهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: كَذَا وَكَذَا.

فَقَالَ الرَّجُلُ: أَرَأَيْتَ؟

قَالَ مَالِكٌ: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِيْنَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[النُّورُ: ٦٣]."(شَرْحُ السُّنَّةِ لِلْبَغَوِيِّ: ١/ ٢١٦).

فَالْهَوَى كَمَا أَنَّهُ يُفْسِدُ عَلَى العَبْدِ دِينَهُ كَذَلِكَ يُفْسِدُ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَيُلَبِّسُ عَلَيْهِ أُمُوْرَهُ وَيُمَكِّنُ مِنْهُ عَدُوَّهُ حَتَّى قَالُوا: مَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ أَعْطَى عَدُوَّهُ مُنَاهُ.

إِذَا مَا رَأَيْتَ المَرْءَ يَقْتَادُهُ الْهَوَى *** فَقَدْ ثَكِلَتْهُ عِنْدَ ذَاكَ ثَوَاكِلُهُ

وَقَدْ أَشْمَتَ الأَعْدَاءَ جَهْلاً بِنَفْسِهِ *** وَقَدْ وَجَدَتْ فِيهِ مَقَالاً عَوَاذِلُهُ

وَمَا يَرْدَعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنِ الْهَوَى *** مِنَ النَّاسِ إِلا حَازِمُ الرَّأْيِ كَامِلُهُ

وَكَمَالُ التَّوْفِيقِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ العَبْدُ عَقْلَهُ فِي النَّجَاةِ مِنَ المَهَالِكِ الَّتِي تَدْهَمُهُ.

قَالَ حَاتِمُ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ المَدَنِيّ: "مَا اسْتَوْدَعَ اللهُ عَبْدَاً عَقْلاً إِلا اسْتَنْقَذَهُ بِهِ يَوْمَاً مَا"(مُخْتَصَرُ رَوْضَةِ العُقَلاءِ، ص: ٢٣).

"فَالعَاقِلُ –كَمَا قَالَ ابْنُ حِبَّان –رَحِمَهُ اللهُ–

- يَقِيسُ مَا لَمْ يَرَ مِنَ الدُّنْيَا بِمَا قَدْ رَأَى.
- وَيُضِيفُ مَا لَمْ يَسْمَعْ مِنْهَا إِلَى مَا قَدْ سَمِعَ.
- وَالعَاقِلُ يَحْسِمُ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلَى بِهِ.
- وَيَدْفَعُ الأَمْرَ قَبْلَ أَنْ يَقَعَ فِيهِ.

فَإِذَا وَقَعَ رَضِيَ وَصَبَرَ ...

- وَالعَاقِلُ لا يُقَاتِلُ مِنْ غَيْرِ عُدَّةٍ.
- وَلَا يُخَاصِمُ بِغَيْرِ حُجَّةٍ.
- وَلَا يُصَارِعُ بِغَيْرِ قُوَّةٍ".

(بِتَصَرُّفٍ مِنْ مُخْتَصَرِ رَوْضَةِ العُقَلاءِ، ص: ٢٥).

وَالْهِدَايَةُ إِلَى المَصَالِحِ المَعِيشِيَّةِ مِنَ الفِطْرَةِ الَّتِي جَبَلَ اللهُ عَلَيْهَا الخَلائِقَ، فَكُلُّ مَخْلُوقٍ يَسْعَى إِلَى حِفْظِ نَفْسِهِ وَتَحْصِينِهَا مِنَ الهَلاكِ وَتَجَنُّبِ مَا يُفْسِدُهَا وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الفِطْرَةِ وَعَدَمِ فَسَادِهَا وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ –تَعَالَى– لَنَا عَدَداً مِنْهَا فِي القُرْآنِ، فَمِنْهَا:

أَوَّلاً: حِكَايَةُ النَّمْلَةِ وَهِدَايَتُهَا فِي إِنْقَاذِ بَنِي جِنْسِهَا.

قَالَ –تَعَالَى–: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [النَّمْلُ: ١٨].

قَالَ ابْنُ بَادِيسٍ –رَحِمَهُ اللهُ–: "عِظَةٌ بَالِغَةٌ: هَذِهِ نَمْلَةٌ وَفَّتْ لِقَوْمِهَا، وَأَدَّتْ نَحْوَهُمْ وَاجِبَهَا!! فَكَيْفَ بِالإِنْسَانِ العَاقِلِ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ نَحْوَ قَوْمِهِ؟!

هَذِهِ عِظَةٌ بَالِغَةٌ لِمَنْ لا يَهْتَمُّ بِأُمُورِ قَوْمِهِ، وَلا يُؤَدِّي الوَاجِبَ نَحْوَهُمْ، وَلِمَنْ يَرَى الخَطَرَ دَاهِمَاً لِقَوْمِهِ، فَيَسْكُتُ وَيَتَعَامَى، وَلِمَنْ يَقُودُ الخَطَرَ إِلَيْهِمْ وَيَصُبُّهُ بِيَدِهِ عَلَيْهِمْ.

آهٍ مَا أَحْوَجَنَا –مَعْشَرَ الْمُسْلِمِيْنَ– إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ النَّمْلَةِ!".

(تفسير ابن باديس، ص: ٢٦٣).

ثَانِيَاً: عَقْلُ مَلِكَةِ سَبَأٍ فعِنْدَمَا جاءَهَا كِتَابُ سُلَيْمَانَ -عَلَيْهِ السَّلامُ- {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} "فَمِنْ حَزْمِهَا وَعَقْلِهَا أَنْ جَمَعَتْ كِبَارَ دَوْلَتِهَا وَرِجَالَ مَمْلَكَتِهَا وَقَالَتْ: {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ} أَيْ: مَا كُنْتُ مُسْتَبِدَّةً بِأَمْرٍ دُوْنَ رَأْيِكُمْ وَمَشُورَتِكُمْ. {قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ} أَيْ: إِنْ رَدَدْتِ عَلَيْهِ قَوْلَهُ وَلَمْ تَدْخُلِي فِي طَاعَتِهِ فَإِنَّا أَقْوِيَاءُ عَلَى القِتَالِ، فَكَأَنَّهُمْ مَالُوا إِلَى هَذَا الرَّأْيِ الَّذِي لَوْ تَمَّ لَكَانَ فِيهِ دَمَارُهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ -أَيْضَاً- لَمْ يَسْتَقِرُّوا عَلَيْهِ بَلْ قَالُوا: {وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ}. فَقَالَتْ لَهُمْ -مُثْنِيَةً لَهُمْ عَنْ رَأْيِهِمْ وَمُبَيِّنَةً سُوءَ مَغَبَّةِ القِتَالِ- {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا} قَتْلاً وَأَسْرَاً وَنَهْبَاً لِأَمْوَالِهَا، وَتَخْرِيبَاً لِدِيَارِهَا، {وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً} أَيْ: فَهَذَا رَأْيٌ غَيْرُ سَدِيدٍ، -وَأَيْضَاً- فَلَسْتُ بِمُطِيعَةٍ لَهُ قَبْلَ الاخْتِبَارِ وَإِرْسَالِ مَنْ يَكْشِفُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَيَتَدَبَّرُهَا، وَحِينَئِذٍ نَكُونُ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِنَا. فَقَالَتْ: {وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ} (بِتَصَرُّفٍ مِنْ تَيْسِيرِ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: ٦٠٥).

فَبِحُسْنِ تَدْبِيرِهَا وَرَجَاحَةِ عَقْلِهَا نَجَوا.

ثَالِثًا: الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ دُونِ السَّدَّيْنِ، فَمِنْ سَلامَةِ فِطَرِهِمْ وَتَمَامِ عُقُولِهِمْ طَلَبُوا مِنْ ذِي القَرْنَيْنِ بِنَاءَ حَاجِزِ حِمَايَةٍ يَتَمَنَّعُونَ بِهِ مِنْ إِفْسَادِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، لأَنَّهُمْ لا طَاقَةَ لَهُمْ بِقِتَالِهِمْ، كَمَا قَالَ – تَعَالَى –: {قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا}[الكَهْفُ: ٩٤ – ٩٥].

فَهَذِهِ الآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ السَّلامَةَ مِنَ الشَّرِّ وَالهَلاكِ مِنْ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ لأَنَّهَا سَبَبٌ فِي حِفْظِ دِمَاءِ النَّاسِ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ. وَأَنَّ ذَلِكَ مُوجَبُ الفِطَرِ السَّلِيمَةِ وَالعُقُولِ المُسْتَقِيمَةِ.

قَدْ يُدْرِكُ الحَازِمُ ذُو الرَّأْيِ المُنَى *** بِطَاعَةِ الحَزْمِ وَعِصْيَانِ الْهَوَى

النِّدَاءُ السَّابِعُ

حُبُّ الدُّنْيَا أَصْلُ الذُّلِّ وَالخُسْرَانِ وَالْهَوَانِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِيْنِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ غَيُورٍ لَيَحْزَنُ عَلَى وَاقِعِ الأُمَّةِ اليَوْمَ؛ فَالْفِتَنُ مُتَلاحِقَةٌ كَأَنَّمَا تَنْصَبُّ مِنْ عُلُوٍّ كَتَرَاشُقِ المَطَرِ أَوْ كَتَنَاثُرِ عِقْدٍ انْفَرَطَ.

وَأَبْنَاءُ الأُمَّةِ إِلا القَلِيْلَ مِنْهُمْ فِي شُغْلٍ نَائِمُونَ، وَغَافِلُونَ، وَتَائِهُونَ.

فَالأُمَّةُ تَبْحَثُ عَنْ مَخْرَجٍ مِنْ ظُلُمَاتِ الْفِتَنِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَعَصَفَتْ بِهَا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ. فَاسْتَضْعَفَهَا عَدُوُّهَا، وَاسْتَصْغَرَهَا خَصْمُهَا.

وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– سَبَبَ هَذَا البَلاءِ، وَعَيَّنَ حَقِيْقَةَ الدَّاءِ، فَقَالَ:

"يُوْشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيْرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزِعَنَّ اللّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ المَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ:

يَا رَسُولَ اللّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَّةُ المَوْتِ".

(السِّلْسِلَةُ الصَّحِيْحَةُ، رقم: ٩٥٨).

فَسَبَبُ الْهَوَانِ: (الْوَهْنُ) الَّذِي هُوَ حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَّةُ المَوْتِ.

وَمَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى الْهَوَى؛ لأَنَّهُ إِيْثَارُ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ.

وَقَدْ صَدَقَ الشَّاعِرُ:

نُوْنُ الْهَوَانِ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوْقَةٌ * فَإِذَا هَوِيتَ فَقَدْ لَقِيْتَ هَوَاناً

فَحُبُّ الدُّنْيَا مَذْمُوْمٌ عِنْدَ إِيْثَارِهَا وَتَقْدِيْمِهَا عَلَى الآخِرَةِ، وَإِلا

"فَإِنَّ حُبَّ الدُّنْيَا لَيْسَ مَذْمُوْماً لِذَاتِهِ، وَإِنَّمَا لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ -عَادَةً- مِن الانْصِرَافِ عَنِ الطَّاعَاتِ، وَالانْغِمَاسِ فِي الشَّهَوَاتِ".

قَالَهُ الأَلْبَانِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي: (السِّلْسِلَةِ الضَّعِيْفَةِ: ١٢/٣٣٩).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"الْعَارِفُ لا يَأْمُرُ النَّاسَ بِتَرْكِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهُمْ لا يَقْدِرُونَ عَلَى تَرْكِهَا، وَلَكِنْ يَأْمُرُهُمْ بِتَرْكِ الذُّنُوبِ مَعَ إِقَامَتِهِمْ عَلَى دُنْيَاهُمْ؛

فَتَرْكُ الدُّنْيَا فَضِيْلَةٌ، وَتَرْكُ الذُّنُوبِ فَرِيْضَةٌ".

(الْفَوَائِدُ، ص: ١٦٩).

وَحَقِيْقَةُ ذَمِّ الدُّنْيَا يُسَلَّطُ عَلَى تَقْدِيمْ مَحَبَّةِ (الرِّئَاسَةِ، وَالمَالِ، وَالشَّهْوَةِ) عَلَى مَا يُحِبُّهُ اللهُ -تَعَالَى- وَيَرْضَاهُ مِمَّا شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ وَمُصْطَفَاهُ.

قَالَ اللهُ –تَعَالَى-: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى * بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى * إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}. [الأَعْلَى: ١٤-١٩].

فَبَيَّنَ –سُبْحَانَهُ– أَنَّ حُبَّ الدُّنْيَا المَذْمُومَ فِي إِيْثَارِهَا عَلَى الآخِرَةِ {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا}.

فَالتَّعَلُّقُ بِالدُّنْيَا: يُوْرِثُ الطُّغْيَانَ، وَيَصْرِفُ عَنْ عِبَادَةِ الرَّحْمَنِ، فَلا يَكُونُ مُؤْثِرَهَا مِنْ أَهْلِ التَّقْوَى، وَذَلِكَ لِمَا امْتَلأَ بِهِ قَلْبُهُ مِنَ الغَفْلَةِ وَالْهَوَى، كَمَا قَالَ –تَعَالَى-: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}[النَّازِعَاتُ: ٣٧-٣٩].

وَقَدْ قَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ-: "مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ؛ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى"(صَحِيْحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، رقم: ٣٢٤٧).

وَالعَاقِلُ العَارِفُ بِحَقِيْقَةِ الدُّنْيَا لا يُؤْثِرُهَا عَلَى الآخِرَةِ؛ لِعِلْمِهِ بِسُرْعَةِ زَوَالِهَا، وَفَنَائِهَا، كَمَا قَالَ —جَلَّ شَأْنُهُ—: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً}[الكَهْفُ: ٤٥].

قَالَ السَّعْدِيُّ —رَحِمَهُ اللَّهُ—: "يَقُولُ —تَعَالَى— لِنَبِيِّهِ —صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— أَصْلاً، وَلِمَنْ قَامَ بِوِرَاثَتِهِ بَعْدَهُ تَبَعاً: اضْرِبْ لِلنَّاسِ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَتَصَوَّرُوهَا حَقَّ التَّصَوُّرِ، وَيَعْرِفُوا ظَاهِرَهَا وَبَاطِنَهَا، فَيَقِيسُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدَّارِ البَاقِيَةِ، وَيُؤْثِرُوا أَيُّهُمَا أَوْلَى بِالإِيْثَارِ.

وَأَنَّ مَثَلَ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، كَمَثَلِ المَطَرِ، يَنْزِلُ عَلَى الأَرْضِ، فَيَخْتَلِطُ نَبَاتُهَا، تُنْبِتُ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، فَبَيْنَا زَهْرَتُهَا وَزُخْرُفُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِيْنَ، وَتُفْرِحُ المُتَفَرِّجِينَ، وَتَأْخُذُ بِعُيُونِ الغَافِلِينَ، إِذْ أَصْبَحَتْ هَشِيمَاً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ، فَذَهَبَ ذَلِكَ النَبَاتُ النَّاضِرُ، وَالزَّهْرُ الزَّاهِرُ، وَالمَنْظَرُ البَهِيُّ، فَأَصْبَحَتِ الأَرْضُ غَبْرَاءَ تُرَاباً، قَدْ انْحَرَفَ عَنْهَا النَّظَرُ، وَصَدَفَ عَنْهَا البَصَرُ، وَأَوْحَشَتِ الْقَلْبَ، كَذَلِكَ هَذِهِ الدُّنْيَا، بَيْنَمَا صَاحِبُهَا قَدْ أُعْجِبَ بِشَبَابِهِ، وَفَاقَ فِيْهَا عَلَى أَقْرَانِهِ وَأَتْرَابِهِ،

وَحصَّلَ دِرْهَمَهَا وَدِينَارَهَا، وَاقْتَطَفَ مِنْ لَذَّتِهِ أَزْهَارَهَا، وَخَاضَ فِي الشَّهَوَاتِ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِ، وَظَنَّ أَنَّهُ لا يَزَالُ فِيهَا سَائِرَ أَيَّامِهِ، إِذْ أَصَابَهُ المَوْتُ أَوْ التَّلَفُ لِمَالِهِ، فَذَهَبَ عَنْهُ سُرُورُهُ، وَزَالَتْ لَذَّتُهُ وَحُبُورُهُ، وَاسْتَوْحَشَ قَلْبُهُ مِنَ الآلامِ وَفَارَقَ شَبَابَهُ وَقُوتَهُ وَمَالَهُ، وَانْفَرَدَ بِصَالِحِ، أَوْ سَيِّئِ أَعْمَالِهِ، هُنَالِكَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ، حِيْنَ يَعْلَمُ حَقِيْقَةَ مَا هُوَ عَلَيْهِ، وَيَتَمَنَّى العَوْدَ إِلَى الدُّنْيَا، لا لِيَسْتَكْمِلَ الشَّهَوَاتِ، بَلْ لِيَسْتَدْرِكَ مَا فَرَطَ مِنْهُ مِنَ الغَفَلاتِ، بِالتَّوْبَةِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ.

فَالعَاقِلُ الجَازِمُ المُوَفَّقُ، يَعْرِضُ عَلَى نَفْسِهِ هَذِهِ الحَالَةِ، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: قَدِّرِي أَنَّكِ قَدْ مِتِّ، وَلا بُدَّ أَنَّ تَمُوتِي، فَأَيُّ: الحَالَتَيْنِ تَخْتَارِيْنَ؟ الاغْتِرَارُ بِزُخْرُفِ هَذِهِ الدَّارِ، وَالتَّمَتُّعِ بِهَا كَتَمَتُّعِ الأَنْعَامِ السَّارِحَةِ، أَمِ العَمَلِ، لِدَارٍ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا، وَفِيْهَا مَا تَشْتَهِيْهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ؟ فَبِهَذَا يُعْرَفُ تَوْفِيقُ العَبْدِ مِنْ خِذْلانِهِ، وَرِبْحُهُ مِنْ خُسْرَانِهِ".

(تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: ٤٧٨).

وَقَدْ تَوَعَّدَ –سُبْحَانَهُ– أَعْظَمَ الوَعِيدِ لِمَنْ رَضِيَ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّ بِهَا، وَغَفَلَ عَنْ آيَاتِهِ، وَلَمْ يَرْجُ لِقَاءَهُ، فَقَالَ: {إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} [يُونِسُ : ٧ – ٨].

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ–:

"الدُّنْيَا خَمْرُ الشَّيْطَانِ مَنْ سَكِرَ مِنْهَا لَمْ يُفِقْ إِلا فِي عَسْكَرِ المَوْتَى نَادِمَاً بَيْنَ الخَاسِرِيْنَ".

وَمَا هَذِهِ الأَيَّامُ إِلاَّ مَرَاحِلُ *** يَحُثُّ بِهَا حَادٍ مِنَ المَوْتِ قَاصِدُ
وأَعْجَبُ شَيْءٍ لَوْ تَأَمَّلْتَ أَنَّهَا *** مَنَازِلُ تُطْوَى وَالمُسَافِرُ قَاعِدُ

تَحْذِيرُ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أُمَّتَهُ مِنَ الاغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا

اعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "إِنَّ أَهْلَ الشِّبَعِ فِي الدُّنْيَا هُمْ أَهْلُ الْجُوعِ غَدَاً فِي الآخِرَةِ".

(صَحِيحُ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، برقم: ٢١٣٨).

وَحَذَّرَ مِنْهَا، فَقَالَ: "احْذَرُوا الدُّنْيَا؛ فَإِنَّهَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ".

(صَحِيحُ الجَامِعِ، برقم: ١٩٢).

وَبَيَّنَ -عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ- حَقِيْقَةَ أَمْرِهَا وَتَفَاهَتِهَا وَخِسَّتِهَا، فَقَالَ: "إِنَّ اللهَ -تَعَالَى- جَعَلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا قَلِيْلاً وَمَا بَقِيَ مِنْهَا إِلا الْقَلِيْلُ، كَالثَّغَبِ شُرِبَ صَفْوُهُ وَبَقِيَ كَدَرُهُ"

(صَحِيحُ الجَامِعِ، رقم: ١٧٣٧).

قَالَ الْمُنَاوِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ– فِي مَعْنَى الثَّغَبِ،–:

"الْغَدِيرُ الَّذِي قَلَّ مَاؤُهُ.

(شُرِبَ صَفْوُهُ وَبَقِيَ كَدَرُهُ) يَعْنِي: أَنَّ مَثَلَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ حَوْضٍ كَبِيرٍ مُلِئَ مَاءً، وَجُعِلَ مَوْرِدًا لِلأَنَامِ وَالأَنْعَامِ.

فَجَعَلَ الْحَوْضُ يَنْقُصُ عَلَى كَثْرَةِ الْوَارِدِ حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلا وَشَلُ كَدِرٌ فِي أَسْفَلِهِ.

بَالَتْ فِيهِ الدَّوَابُ وَخَاضَتْ فِيهِ الأَنْعَامُ.

فَالعَاقِلُ لا يَطْمَئِنُ إِلَى الدُّنْيَا، وَلا يَغْتَرُّ بِهَا بَعْدَ مَا اتَّضَحَ لَهُ أَنَّهَا زَائِلَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ، وَأَنَّهُ قَدْ مَضَى أَحْسَنُهَا، وَأَنَّهَا وَإِنْ سَاعَدَتْ مُدَّةً فَالمَوْتُ لا مَحَالَةَ يُدْرِكُ صَاحِبَهَا وَيَخْتَرِمَهُ".

(فَيْضُ الْقَدِيرِ: ٢/٢٧٩).

وَلِهَذَا لَمَّا كَانَتْ هَذِهِ حَقِيْقَةَ الدُّنْيَا فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: "إِنَّ اللّهَ –تَعَالَى– لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ".

(صَحِيحُ الجَامِعِ، رقم : ١٨١٤).

وَاعْلَمْ: أَنَّ الخَيْرَ فِي طَاعَةِ اللّهِ، فَفِيْهَا العِزُّ وَالتَّمْكِينُ وَالنَّصْرُ وَالرِّزْقُ، وَمَنْ أَشْتَغَلَ بِطَاعَةِ اللّهِ فَقَدْ تَكَفَّلَ اللّهُ بِرِزْقِهِ.

"مَنْ كَانَتْ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا قُدِّرَ لَهُ".

(صَحِيحُ الجَامِعِ، رقم : ٦٥١٠) .

النِّدَاءُ الثَّامِنُ

شَيَاطِينُ الخَرَابِ وَالمُؤَامَرَةُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِينِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ قَالَ اللّهُ —تَعَالَى–: {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ}[الفرقان: ٢٧]. إِنَّهُ يَوْمُ الحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ، عَلَى الغَفْلَةِ وَالبَطَّالَةِ، بِتَضْيِيعِ الأَوْقَاتِ، وَالانْشِغَالِ بِالْمُنْكَرَاتِ، إِذْ سَاءَتِ الأَعْمَالُ، لِكَثْرَتِ التَّسْوِيفِ وَطُولِ الآمَالِ.

قَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيّ —رَحِمَهُ اللهُ–: "الدُّنْيَا خَمْرُ الشَّيْطَانِ مَنْ سَكِرَ مِنْهَا لَمْ يُفِقْ إِلا فِي عَسْكَرِ الْمَوْتَى نَادِمًا مَعَ الخَاسِرِينَ".

وَمِنْ صُوَرِ هَذَا السُّكْرِ الفَاحِشِ الدَّالِّ عَلَى دَنَاءَةِ فَاعِلِهِ: (أَكْلُ المَالِ الحَرَامِ) مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، فَكَمْ سَمِعْنَا بِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، بَلْ وَيَبْتَزُّونَ أَمْوَالَ النَّاسِ، وَيَأْكُلُونَهَا بِالبَاطِلِ، فَقَدْ كَانَتْ مُسَوِّغَاتُ فِعْلَتِهِم الشَّنِيعَةِ فِي الزَّمَنِ الغَابِرِ أَنَّ الرَّاتِبَ لا يَكْفِي —وَلَيْسَ هَذَا لَهُمْ بِعُذْرٍ— فَمَا بَالُهُمْ اليَوْمَ مَعَ زِيَادَةِ رَوَاتِبِهِمْ لا يَزَالُونَ فِي سُكْرِ أَكْلِ الْمَالِ الحَرَامِ.

أَفِقْ مِنْ سُبَاتِكَ -أَيُّهَا المِسْكِينُ-، فَسَاعَةُ الرَّحِيلِ لا رَيْبَ آتِيَةٌ، وَلْتَعْلَمْ أَنَّ النَّبِيَّ —صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ ، فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ"، ثُمَّ قَرَأَ: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} [هود : ١٠٢] (مُتَّفَقٌ عَلَيهِ).

وَيُذْكَرُ أَنَّهُ قِيلَ لِعَلِيٍّ —رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: مَا تَقُولُ فِي الحَلالِ؟ قَالَ: هُوَ تَالِفٌ. قَالُوا: فَمَا تَقُولُ فِي الحَرَامِ؟ قَالَ: تَالِفٌ هُوَ وَأَهْلُهُ.

فَلَعَلَّكَ سَمِعْتَ بِأُولَئِكَ الَّذِينَ ذَهَبُوا يَسْرِقُونَ مِنْ بِنَايَاتِ وَمُنْشَئَاتِ الدَّوْلَةِ العَامَّةِ، هَلْ بَقِيَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِمَّا سَرَقُوهُ؟!!!

بَلْ أَقُولُ: كَمْ سَمِعْنَا عَنْهُمْ وَقَدْ أُصِيبُوا (بِعَاجِلِ) عُقُوبَةِ اللّهِ، فَبَعْضُهُمْ قُطِعَتْ بَعْضُ أَطْرَافِهِ بِالقَنَابِلِ الْمُتَفَجِّرَةِ، وَبَعْضُهُمْ ذَهَبَ بِرَصَاصَاتِ الطمَعِ فِي صِرَاعِ الجَشَعِ مَعَ الكِلابِ اللاهِثَةِ خَلْفَ جِيفَةِ الدُّنْيَا الفَانِيَةِ.

وَإِنْ جِئْتَ إِلَى (التَّعْلِيمِ) وَجَدْتَ الغِشَّ وَالرِّشْوَةَ. فَلِمَاذَا هَذِهِ الحَالُ أَيُّهَا (الْمُرَبِّي)!!!

وَإِنْ جِئْتَ إِلَى (الْمُسْتَشْفَيَاتِ) فَالأَدْوِيَةُ مُنْتَهَبَةٌ بَيْنَ سَمَاسِرَةِ العِيَادَاتِ مِنْ: (مُمَرِّضِينَ، وَصَيَادِلَةَ، وَأَطِبَّاءَ). أَتَدَنَّى الحَالُ بِكُمْ إِلَى أَنْ تُصَافُّوا قُطَّاعَ الطَّرِيقِ، بَلْ لَعَلَ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ أَقَلُّ شَنَاعَةً مِنْكُمْ، لأَنَّهُمْ يَرْصُدُونَ الأَغْنِيَاءَ. أَمَّا أَنْتُمْ فَقَدْ سَالَ لُعَابُكُمْ عَلَى أَدْوِيَةِ (الْمَسَاكِينِ، وَالفُقَرَاءِ)، فَإِلَى اللّهِ الْمُشْتَكَى.

وَمَاذَا نَقُولُ عَنْ دَوَائِرِ وَمُنْشَئَاتِ الدَّوْلَةِ الأُخْرَى، فَالحَالُ مُتَشَابِهَةٌ مِنْ وُجُودِ بَعْضِ (مُحْتَرِفِي القَرْصَنَةِ)، فَبِضَغْطَةِ قَلَمٍ يَضَعُ صِفْرًا بَعْدَ أَلِفٍ لِيُصْبِحَ عَشَرَةَ آلافٍ، فَيَأْخُذُ تِسْعَةً مِنْهَا إِثْمَاً وَعُدْوَاناً، فَتَعْساً لَكِ مِنْ (نُفُوسٍ ضَعِيفَةٍ)، (وَأَرْوَاحٍ بَلِيدَةٍ) سَاوَتْ فِي هِمَّتِهَا البَهَائِمَ السَّائِبَةَ.

فَيَا عِبَادَ اللهِ مَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ مِنْ أَمْرِ الأُمَّةِ شَيْئًاً —قَضَاءً، أَوْ تَطْبِيباً، أَوْ تَعْلِيماً وَتَدْرِيساً، وَنَحْوَ ذَلِكَ— وَهُوَ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ فَقَدْ خَانَ الأَمَانَةَ، فَإِنَّ الوَظَائِفَ اسْتِحْقَاقٌ لِلْكُفْءِ الْمُؤَهَّلِ لَهَا، فَمَنْ جَلَسَ عَلَى كُرْسِيٍّ مِنْهَا (بِطَرِيقَةٍ مُلْتَوِيَةٍ)، أَوْ (غَيْرِ شَرْعِيَّةٍ)؛ فَإِنَّهَا عَلَيْهِ خِزْيٌ وَعَارٌ، وَلَنْ تُغَيِّرَ عِنْدَ النَّاظِرِينَ مِنْ حَقِيقَتِهِ شَيْئاً، إلا كَمَا قِيلَ:

فَلَوْ لَبِسَ الحِمَارُ ثِيَابَ خَزٍ *** لَقَالَ النَّاسُ يَا لَكَ مِنْ حِمَارٍ

وَقَدْ جَاءَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ —رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ— أَنَّ النَّبِيَّ —صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— قَالَ: "لَيُوشِكَنَّ رَجُلٌ أَنْ يَتَمَنَّى أَنَّهُ خَرَّ مِنَ الثُّرَيَّا وَلَمْ يَلِ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ شَيْئًاً".

(صَحِيحُ الجَامِعِ، رقم الحديث: ٥٤٨٦).

وَإِذَا انْتَقَلْنَا إِلَى شَرِيحَةٍ أُخْرَى مِنَ الْمُجْتَمَعِ فَالحَالُ حَالُ مَنْ لا يُحْسَدُ: مِنْ ظُهُورِ الزِّنَا، وَانْتِشَارِ الرِّبَا، وَالانْهِمَاكِ فِي الخَمْرِ وَالمَعَازِفِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ —صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— : "سَيَكُونُ فِي آخِرِ

الزَّمَانِ خَسْفٌ، وَقَذْفٌ، وَمَسْخٌ، إِذَا ظَهَرَتْ المَعَازِفُ، وَالقَيِّنَاتُ، وَاسْتُحِلَّتِ الخَمْرُ". [(صَحِيحٌ) مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ –رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ–، صَحِيحُ الجَامِعِ برقم: ٣٦٦٥].

(فَالزِّنَا) قَدْ ظَهَرَ وَانْتَشَرَ، (وَالرِّبَا) كَذَلِكَ، وَالنَّبِيُّ –صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: "إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللّهِ".[(صَحِيحٌ) مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَاسٍ –رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا–، صَحِيحُ الجَامِعِ برقم: ٦٧٩].

(وَشُرِبَ الخَمْرُ) وَنَسِيَ هَؤُلاءِ أَنَّ الخَمْرَ مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَنْ أَقْتَرَبَ مِنْهَا، فَصَانِعُ الخَمْرِ مَلْعُونٌ، وَبَائِعُ الخَمْرِ مَلْعُونٌ، وَالَّذِي يُوَافِقُ عَلَى افْتِتَاحِ خَمَارَةٍ مَلْعُونٌ، وَالَّذِي يَحْمِلُ الخَمْرَ إِلَى غَيْرِهِ مَلْعُونٌ، وَالَّذِي يَجْمَعُ زُجَاجَاتِ الخَمْرِ الفَارِغَةَ لِيَبِيعَهَا لِمَصْنَعِ الخَمْرِ مَلْعُونٌ، وَالَّذِي يَصْنَعُ صَنَادِيقَ الخَمْرِ مَلْعُونٌ، وَالسَّائِقُ الَّذِي يَعْمَلُ بِسَيَّارَةٍ يَحْمِلُ فِيهَا الخَمْرَ مَلْعُونٌ، فَكُلُّ مَنْ اقْتَرَبَ مِنَ الخَمْرِ مَلْعُونٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ النَّاسَ يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَلا يُبَالُونَ؛ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ.

وَنُحَذِّرُ هَؤُلاءِ جَمِيعاً مِنْ (خَاتِمَةِ السُّوءِ).

فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : "لَيَبِيتَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى طَعَامٍ وَشَرَابٍ وَلَهْوٍ، فَيُصْبِحُونَ قَدْ مُسِخُوا قِرَدَةً وَخَنَازِيرَ"

(سِلْسِلَةُ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ: برقم: ١٦٠٤).

وَإِنْ تَغَافَلَ هَؤُلاءِ، فَإِنَّنَا نُخَاطِبُ الغَيْرَةَ –إِنْ كَانَتْ لَهَا بَقِيَّةٌ فِي قُلُوبِهِمْ– إِذْ كَيْفَ يَقْبَلُ هَؤُلاءِ الذُّلَّ الَّذِي أَصَابَنَا حَتَّى أَصْبَحَتْ فَاجِعَتُنَا تُبْكِي النِّسَاءَ وَالصِّغَارَ.

قَالَ –تَعَالَى–: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ} [الشُّورَى: ٣٠].

شَعْبٌ يُهَانُ، وَبَلَدٌ يُسْتَبَاحُ، وَإِرَادَةٌ تُكْسَرُ.

قُلْ: {فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ}. فَيَا شَارِبَ الخَمْرِ، وَيَا آكِلَ الرِّبَا، وَيَا سَامِعَ الغِنَاءِ، وَيَا مُقْتَرِفَ المَعْصِيَةِ لا تَطْعَنْ (بِخِنْجَرِ مَعْصِيَتِكَ) جَسَدَ الأُمَّةِ، إِنَّهَا مُؤَامَرَةٌ فَلا تَكُنْ مِنَ المُشَارِكِينَ فِيْهَا، فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الغَرْبِيين : "كَأْسٌ وَغَانِيَةٌ تَفْعَلانِ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مَا لا يَفْعَلُهُ أَلْفُ مِدْفَعٍ".

فَمُرَوِّجُوا المُجُونَ هُمْ أُلْعُوبَةُ المُحْتَلِ فِي تَنْفِيذِ مُخَطَّطَاتِهِ:

مُؤَامَرَةٌ مَرَامِيهَا عِظَامٌ * تُدَبِّرُهَا شَيَاطِينُ الخَرَابِ**

النِّدَاءُ التَّاسِعُ

الْوَحْشِيَّةُ بَيْنَ بَلاهَةِ الأَفْكَارِ وَبَلادَةِ الْهِمَمِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ سُنَّةَ نَمْرُود، وَفِرْعَونَ، وَمَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِمْ فِي تَشْرِيعِ الوَحْشِيَّةِ، وَسَنِّ قَوَانِينَ الإِبَادَةِ مَاضِيَةٌ فِي جِنْسِ بَنِي آدَمَ؛ لأَنَّهَا مِنْ إِفْرَازَاتِ غُلُوِّ القُوَّةِ السَّبُعِيَّةِ المَغْرُوزَةِ فِيهِمْ.

فَعِنْدَ تَحْكِيمِهَا عَلَى أَعْمَالِ الأَفْرَادِ وَالجَمَاعَاتِ يَنْحَدِرُ بَنُو آدَمَ مِنْ رَكْبِ الإِنْسَانِيَّةِ إِلَى أَدْغَالِ الوُحُوشِ، وَكُهُوفِ السِّبَاعِ، وَأَوْكَارِ الجَوَارِحِ.

وَلا عَجَبَ مِنْ ذَلِكَ فَالدُّنْيَا مَلِيئَةٌ بِأَصْحَابِ القُلُوبِ القَاسِيَةِ الحَجَرِيَّةِ وَالنُّفُوسِ الغَضَبِيَّةِ العَاتِيَةِ المُتَجَبِّرَةِ المُفْسِدَةِ فِي الأَرْضِ.

لَكِنَّ العَجَبَ الَّذِي لا يَنْتَهِي هُوَ إِلْحَاقُ تِلْكَ الهَمَجِيَّةِ –الَّتِي تَسْتَمِدُّ سَفْكَهَا وَبَطْشَهَا مِنْ وَحْشِيَةِ الحَيَوَانِيَّةِ– بِأَنْبَلِ شَرِيْعَةٍ نَزَلَتْ عَلَى الأَرْضِ.

فَالإِسْلامُ مَحْكُومٌ فِي كُلِّ تَشْرِيعَاتِهِ بِالعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَالحِكْمَةِ حَتَّى فِي مَقَامِ العُقُوبَةِ ، وَإِقَامَةِ الحُدُودِ ، وَمُقَارَعَةِ أَهْلِ البَاطِلِ. لا يَتَخَلَّفُ حُكْمٌ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ عَنْ ذَلِكَ.

وَالظُّلْمُ وَالقَسْوَةُ وَالسَّفَهُ فِي أَعْمَالِ أَهْلِ الفُجُورِ وَالبِدْعَةِ مُسْتَمَدٌّ مِنْ نُفُوسِهِمُ العَاتِيَةِ وَأَهْوَائِهِمُ البَاغِيَةِ وَشَيَاطِينِهِمُ الطَّاغِيَةِ.

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ البَلاهَةُ العَامَّةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَبْنَاءِ الأُمَّةِ المُسْلِمَةِ الَّتِي لا أَقُولُ لا تَنْظُرُ إِلَى الجَرِيمَةِ المُقَنَّنَةِ عَلَى قُبْحِهَا وَفُجُورِهَا وَشَنَاعَتِهَا. بَلْ لا تُبْصِرُهَا وَلا تَعِي مَا وَرَاءَهَا : {فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} .

وَقَدْ يكُونُ مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ أَنْ تَسْرَيَ البَلاهَةُ فِي الفِكْرِ عِنْدَ بَعْضِ عِلْيَةِ القَوْمِ مِنْ وُجهَاءَ وَحُكَمَاءَ. بَلْ وَمِنْ مُنْتَسِبِيْنَ إِلَى العِلْمِ مِنْ خُطَبَاءَ وَوُعْاظٍ وَنَحوِهِمْ.

وَتَتَحَوَّلُ إِلَى بَلادَةٍ فِي العَمَلِ، وَيُصْبِحُ الحَالُ حَالَ مَنْ يَضْرِبُ أَخْمَاساً بِأَسْدَاسٍ.

فَلا تَوْجَدُ مَشَارِيعُ جَادَةٌ -إِلا القَلِيلُ النَّادِرُ- فِي التَّصَدِّي لِهَذَا البَلاءِ العَامِّ الَّذِي شَمَلَ الأُمَّةَ كُلَّهَا. تَصَدِّيَاً يَكُونُ بِحَجْمِ المُصِيبَةِ وَفُجُورِهَا، وَعَلَى قَدْرِ طَاقَةِ الأُمَّةِ وَإِمْكَانِيَاتِهَا.

فَسُيُوفُ البَغِيِّ مِنْ سُلالَةِ السَّبَئِيَّةِ وَرَبِيبَتِهَا مَنْ الحَرُورِيَّةِ قَدْ فَجَرَتَا وَفَجَّرَتَا أَنْهُرَ الدِّمَاءِ مِنْ وَتِينِ رِقَابِ أَهْلِ السُّنَّةِ بِخُبْثٍ وَغَدْرٍ لَمْ يَجْرِ فِيمَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ تَمَالُؤٌ عَلَى أَهْلِ الإِسْلامِ مِثْلُهُ.

وَالحَبْلُ -كَمَا يُقَالُ- عَلَى الجَرَّارِ، وَلَكِنْ ...

مَتَّى نَنْتَبِهُ؟!

وَمَتَّى نَسْتَيْقِظُ؟!

بَعْضُنَا قَدْ اسْتَيْقَظَ –وَكَيْفَ لا يَسْتَيْقِظُ مِنْ فَاجِعَةٍ لَمْ نَكُنْ نَتَصَوَّرُ مَشَاهِدَ قَسْوَتِهَا وَلا فِي الخَيَالِ–

نَعَم، اسْتَيْقَظَ اسْتِيقَاظَ العَاجِزِ الحَيْرَانِ، فَلَمْ يَجِدْ مَفَرًّا إِلا أَنْ يَرْجِعَ لِلنَّوْمِ مُتَوَسِّدًا مَخَدَّتَهُ بِبَلاهَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَنَمْ تَنَاوَمَ تَنَاوُمَ العَاجِزِ وَالكَسْلانِ بِبَلادَةٍ.

نَعَم، قَدْ يَكُونُ فِي العِبَارَةِ قَسْوَةٌ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُوفِ المَقَامَ حَقَّهُ. بَلْ وَلا عُشْرَهُ.

وَلَيْسَ المَطْلُوبُ بَيَانَ الحَالِ فَقَطُّ. بَلْ لا بُدَّ مِنْ وَضْعِ العِلاجِ وَاسْتِنْهَاضِ الهِمَمِ.

وَمَرْكَبُ النَّجَاةِ هُوَ بِنَاءُ الأُمَّةِ –بِعُلَمَائِهَا وَحُكَّامِهَا وَأَبْنَائِهَا– مَشْرُوعًا سُنِّيًّا يُوقِفُ النَّزِيفَ الهَائِجَ مِنْ دِمَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ.

وَأَوَّلُ لَبِنَةٍ فِي المَشْرُوعِ الإِسْلامِيِّ العَالَمِيِّ العَامِّ هُوَ (حَمْلُ القَضِيَّةِ) فَمَا لَمْ يَعْتَقِدْ أَبْنَاءُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ فِي العَالَمِ أَنَّ قَضِيَّةَ هَذَا الزَّمَانِ التَّصَدِّي لِبَطْشِ السَّبَئِيَّةِ وَالخَوَارِجِ فَلَنْ تَكُونَ هُنَاكَ قَضِيَّةٌ فَضْلاً عَنْ مَشْرُوعٍ.

وَحَمْلُ القَضِيَّةِ يَكُونُ بِعَدَدٍ مِنَ القَنَاعَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَهَمُّهَا:

- تَصَوُّرُ حَجْمِ النَّازِلَةِ وَأَضْرَارِهَا وَآثَارِهَا وَمَآلاتِهَا وَأَسْبَابِهَا وَبَوَاعِثِهَا وَمُجْرِمِيهَا وَمُحَرِّكِيهَا.

- الاعْتِقَادُ بِأَنَّ فَرْضَ الكِفَايَةِ فِي صَدِّهَا لَمْ يَتَحَقَّقْ؛ فَيَتَعَيَّنُ عَلَى كُلِّ الأُمَّةِ السُّنِّيَّةِ القِيَامُ بِذَلِكَ، كُلٌّ حَسَبَ وُسْعِهِ -عِلْمًا وَقُدْرَةً-.

- تَقْدِيمُهَا عَلَى كُلِّ الإِهْتِمَامَاتِ؛ لأَنَّهَا الوَاجِبُ القَائِمُ (وَاجِبُ الوَقْتِ).

- اعْتِقَادُ أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُقَدِّمَ الكَثِيرَ، فَأَعْظَمُهُ إِصْلاحُ نَفْسِكَ وَمَنْ تَحْتَ يَدِكَ مِنَ الأَهْلِ وَالأَبْنَاءِ، وَالدُّعَاءُ فِي كُلِّ الأَوْقَاتِ -خَاصَّةً

سَاعَات الاسْتِجَابَةِ-، وَتَعْلِيمُ الأُمَّةِ طَرِيقَ الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ بِالتَّوْبَةِ وَالتَّوْحِيدِ وَتَحْقِيقِ السُّنَّةِ، وَالقِيَامُ بِالنَّصِيحَةِ وَتَحْرِيضُ الأُمَّةِ عَلَى وَاجِبِ التَّصَدِّي لِلْخَطَرِ بِالمَالِ وَاللِّسَانِ وَاليَدِ. وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الأُمَّةَ جَسَدٌ وَاحِدٌ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالحُمَّى وَالسَّهَرِ.

فَأَوَّلُ خُطْوَةٍ نَخْطُوهَا إِلَى مَشْرُوعِ الأُمَّةِ: (صَلاحُ أَنْفُسِنَا، وَإِصْلاحُ غَيْرِنَا).

وَأَوَّلُ لَبِنَةٍ نُؤَسِّسُ عَلَيْهَا مَشْرُوعَ الأُمَّةِ: (حَمْلُ القَضِيَّةِ).

وَمَعَ الإِخْلاصِ وَالصِّدْقِ تَنْكَشِفُ الكُرُوبُ؛ فَالغَيْثُ قَطْرَةٌ ثُمَّ يَنْهَمِرُ، وَإِنَّمَا السَّيْلُ اجْتِمَاعُ النُّقَطِ.

فَاللَّهَ اللَّهَ فِي دِينِنَا

وَاللَّهَ اللَّهَ فِي أَنْفُسِنَا

وَاللَّهَ اللَّهَ فِي إِخْوَانِنَا

وَاللَّهَ اللَّهَ فِي أُمَّتِنَا.

النِّدَاءُ الْعَاشِرِ

الشِّعَارَاتُ الْمُزَيَّفَةُ سَبَبُ تَضْلِيلِ الأُمَّةِ وَشَقَائِهَا

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِينِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ –رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ–، عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ– قَالَ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟

قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِهُ يَنْطِقُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ».

(صحيح الجامع برقم: ٣٦٥٠).

إِنَّ مِنَ الْمَصَائِبِ العَظِيمَةِ الَّتِي تَنْزِلُ عَلَينَا أُمَّةَ الإِسْلامِ –زِيَادَةً عَلَى بَغْيِ أَعْدَائِنَا– هِيَ جَهْلُ الْمُتَصَدِّرِينَ مِنْ أَبْنَاءِ جِلْدَتِنَا. بَلْ وَتَضْلِيلُهُمْ لِمُجْتَمَعَاتِنَا.

فَتَحْتَ بَعْضِ الشِّعَارَاتِ تُغْتَالُ مَصَالِحُ الأُمَّةِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ وَتُنْتَهَبُ بَيْنَ زُمَرِ الغَالِينَ وَالْمُبْطِلِينَ وَالجَاهِلِينَ، فَشَرُّ أَنْوَاعِ السَّرِقَةِ سَرِقَةُ الحَقَائِقِ مِنْ عُقُولِ أَبْنَاءِ الأُمَّةِ، وَزَجُّ الأَفْكَارِ الدَّخِيلَةِ فِيهَا عَبْرَ اللافِتَاتِ وَالشِّعَارَاتِ وَالهِتَافَاتِ حَتَّى يَتَبَدَّلَ دِينُهُمْ وَتَتَغَيَّرَ ثَقَافَتُهُمْ، فَيَنْشَأَ جِيلٌ مِسْخٌ عَلَى مَنَاهِجَ مُشَوَّهَةٍ.

فَصِنَاعَةُ الشِّعَارَاتِ الْمُزَيَّفَةِ أَحَدُ أَنْمَاطِ الصِّرَاعِ الجَدِيدِ لِمُحَارَبَةِ أُمَّةِ الإِسْلامِ، فَيَعْمَلُ الأَعْدَاءُ مِنَ الدَّاخِلِ وَالخَارِجِ –بِمَكْرٍ وَدَهَاءٍ–، وَالجُهَّالُ وَالسُّفَهَاءُ –بِتَبَعِيَّةٍ عَمْيَاءَ– عَلَى إِنْشَاءِ أَجْيَالٍ مُلَوَّثَةِ الْمَفَاهِيمِ تَتَصَدَّرُ الْمَشْهَدَ القِيَادِي فِي الأُمَّةِ فِي مُخْتَلَفِ الْمَنَاطِقِ تَبُثُّ سُمُومَهَا تَحْتَ مَظَلَّةِ شِعَارٍ أَوْ لافِتَةٍ مُسْتَغِلَّةً الجَهْلَ وَالعَاطِفَةَ حَتَّى عَمَّتِ الفَوْضَى وَاخْتَلَطَتِ الأَوْرَاقُ.

وَمِنْ أَغْرَبِ مَا فِي مَهْزَلَةِ اللافِتَاتِ وَالشِّعَارَاتِ أَنْ تَحْمِلَ الجُمُوعُ الْمُغَرَّرُ بِهَا شِعَارَاتِ عَدُوِّهِمْ وَتُرَدِّدَ هِتَافَاتِهِ. بَلْ الأَنْكَى مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَذُبُّونَ عَنْهَا، وَيَمُوتُونَ تَحْتَهَا.

وَلأَجْلِ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْنَا مَعْرِفَةُ ضَوَابِطِ الشِّعَارَاتِ الصَّحِيحَةِ مِنْ غَيْرِهَا حَتَّى لا يُغَرَّرَ بِنَا وَلا تُسْرَقَ الحَقَائِقَ مِنْ عُقُولِنَا وَلا يَسْتَهْبِلَنَا الأَعْدَاءُ وَلا يَسْتَجْهِلَنَا السُّفَهَاءُ.

اعْلَمْ -وَفَّقَكَ اللهُ-: أَنَّ الشِّعَارَاتِ مِنْ جِنْسِ الادِّعَاءَاتِ الَّتِي لا تُقْبَلُ إِلا بِشَرْطَيْنِ:

الأَوَّلِ: صِحَّةِ الادِّعَاءِ فِي نَفْسِهِ بِأَنْ يَثْبُتَ بِالدَّلِيلِ الشَّرْعِيِّ الصَّحِيحِ أَوْ بِالعَقْلِ الصَّرِيحِ.

الثَّانِي: صِدْقِ ادِّعَاءِ القَائِلِ بِهِ بِأَنْ يَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ.

فَالشِّعَارُ الَّذِي لا يَثْبُتُ لِمُخَالَفَتِهِ الشَّرْعَ أَوْ مُنَافَاتِهِ الوَاقِعَ لا يَجُوزُ رَفْعُهُ وَتَبَنِّيهِ؛ لأَنَّ الشِّعَارَ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِ عُنْوَانٌ مُخْتَصَرٌ لِجُمْلَةٍ مِنَ الْمَقَاصِدِ وَالأَهْدَافِ، فَهُوَ عَلامَةٌ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُوصِلِ لِمَصَالِحِ

العِبَادِ؛ فَإِذَا كَانَ مُحْتَوَاهُ فَارِغاً، وَمَعْنَاهُ خَاوِياً فَإِنَّهُ يُوجِبُ الضَّلالَ وَالتَّيْهَ وَالعَمَى عَنِ الطَّرِيقِ الصَّحِيحِ الْمُوصِلِ لِلْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ.

فَالشِّعَارُ كَالقَائِدِ الَّذِي يَتَقَدَّمُ جُنْدَهُ لِلْوُصُولِ إِلَى الظَّفَرِ وَالفَوْزِ بِمَطْلُوبِهِمْ، فَإِنْ كَانَ القَائِدُ دَلِيلاً بَلا مَدْلُولٍ أَوْ لَفْظاً بِلا مَعْنَى أَوْ مَبْنًى بِلا مَغْزَى كَانَ كَالسَّرَابِ الَّذِي يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً.

فَكُلُّ لافِتَةٍ تُرْفَعُ لا تُؤَسَّسُ عَلَى العِلْمِ بِالوَاقِعِ وَالوَاجِبِ الشَّرْعِيِّ فِيْهِ، فَهِيَ مِنْ:

- نَعَرَاتِ الجَاهِلِيَّةِ.
- أَوْ الأَهْوَاءِ الحِزْبِيَّةِ.
- أَوْ الْمَصَالِحِ الشَّخْصِيَّةِ.

الَّتِي تُوجِبُ لِمَنْ يَسِيرُ خَلْفَهَا الضَّلالَ وَالهَلاكَ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ–:

"وَلا يَتَمَكَّنُ الْمُفْتِي وَلا الحَاكِمُ مِنَ الفَتْوَى وَالحُكْمِ بِالحَقِّ إلا بِنَوْعِيْنِ مِنَ الفَهْمِ:

- **أَحَدَهُمَا**: فَهْمِ الوَاقِعِ وَالفِقْهِ فِيْهِ واسْتِنْبَاطِ عِلْمِ حَقِيقَةِ مَا وَقَعَ بِالقَرَائِنِ وَالأَمَارَاتِ وَالعَلامَاتِ حَتَّى يُحِيطَ بِهِ عِلْماً.
- **وَالنَّوْعِ الثَّانِي**: فَهْمِ الوَاجِبِ فِي الوَاقِعِ وَهُوَ فَهْمُ حُكْمِ اللهِ الَّذِي حَكَمَ بِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ فِي هَذَا الوَاقِعِ.

ثُمَّ يُطَبِّقُ أَحَدَهُمَا عَلَى الآخَرِ فَمَنْ بَذَلَ جُهْدَهُ وَاسْتَفْرَغَ وُسْعَهُ فِي ذَلِكَ لَمْ يُعْدَمْ أَجْرَيْنَ أَوْ أَجْراً ".

(إِعْلامُ الْمُوَقْعِيْنَ: ١/٨٧ – ٨٨).

وَعِنْدَمَا يَسْتَقْرِأُ العَاقِلُ الشِّعَارَاتِ الَّتِي تُرْفَعُ وَالرَّايَاتِ الَّتِي تُنْصَبُ لاسْتِنْهَاض الأُمَّةِ إِلَى مَصَالِحِهَا يَجِدُ أَنَّ الغَالِبَ مِنْهَا غَيْرُ ثَابِتٍ وَلا صَحِيحٍ لا مِنَ النَّاحِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ وَلا الوَاقِعِيَّةِ.

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ خَطِيرَةٌ لِلْغَايَةِ؛ لأَنَّهَا مُفْتَرَقُ الطُّرُقِ بَيْنَ الْمَسْلَكِ الصَّحِيحِ الْمُفْضِي إِلَى الْمَصْلَحَةِ الْمَرْجُوَّةِ وَبَيْنَ الدَّهَالِيزِ الْمُظْلِمَةِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الْمَهَالِكِ وَالضَّيَاعِ.

فَصُنَّاعُ الشِّعَارَاتِ الزَّائِفَةِ عَلَى طَرَائِقَ مُخْتَلِفَةٍ، فَمِنْهُمِ:

أَوَّلاً: مَنْ يَصُوغُ عِبَارَةَ الشِّعَارِ مِنْ مَادَةِ العَوَاطِفِ حَتَّى يَجْمَعَ حَوْلَهُ الدَّهْمَاءَ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ تَغْلِبُ عَوَاطِفُهُمْ عُقُولَهُمْ فَهُمْ مِنْ جِنْسِ النِّسَاءِ وَالأَطْفَالِ تُحَرِّكُهُمُ الحَمَاسَاتُ الفَارِغَةُ، وَتَغُرُّهُمُ العِبَارَاتُ الرَّنَانَةُ، وَيَسْتَهْوِيهِمْ بَرِيقُ الهِتَافَاتِ.

وَيَغْلِبُ هَذَا الصِّنْفُ عَلَى أَصْحَابِ الحَمِيَّةِ غَيْرِ الْمُنْضَبِطَةِ، وَمَنْ تَغْلِبُ قُوَّتُهُمُ الغَضَبِيَّةُ الصَّبْرَ عِنْدَ الفِتَنِ وَالمِحَنِ وَشِدَّةِ النَّوَازِلِ.

ثَانِياً: وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ شِعَارَهُ فَضْفَاضَاً وَاسِعَاً يَسَعُ الجَمِيعَ، وَيَسْتَرْضِي كُلَّ أَحَدٍ؛ لأَنَّهُ لا يُرِيدُ أَنْ يَخْسَرَ شَيْئاً، وَإِنَّمَا يَسْعَى لِلرِّبْحِ وَهِيَ طَرِيقَةُ أَصْحَابِ الشَّهَوَاتِ مِمَّنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِمْ حُبُّ الْمَنَاصِبِ وَالأَمْوَالِ وَالنِّسَاءِ. فَهُمْ مِمَّنْ تَتَغَلَّبُ شَهَوَاتُهُمْ عَلَى صَبْرِهِمْ وَثَبَاتِهِمْ عِنْدَ الأَمْرِ وَالنَّهْيِ.

ثَالِثًا: وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَسِّسُ شِعَارَهُ عَلَى بِدْعَةٍ يَجْمَعُ لَهَا الْمُتَشَابِهَاتِ مِنَ الأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي فَتَتَرَتَّبُ عِنْدَهُ مُقَدِّمَاتٌ فَاسِدَةٌ تُفْضِي إِلَى تَحْرِيفِ النَّصِ —تَأْوِيلاً—، وَاعْتِمَادِ الرَّأْيِ الفَاسِدِ —قِيَاساً—.

وَهَذَا الصِّنْفُ يَغْلِبُ عَلَى مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ بِالآثَارِ النَّبَوِيَّةِ وَمَسَالِكِ السَّلَفِ الْمَرْضِيَّةِ.

وَهُنَاكَ نَوْعٌ آخَرُ غَيْرُ هَؤُلاءِ يَرْفَعُ شِعَارَاتٍ صَحِيحَةً لَكِنَّهُ لا يَعْمَلُ بِهَا كَسَلاً وَتَهَاوُناً بِسَبَبِ غَفْلَتِهِ الَّتِي أَوْجَبَهَا قُوَّةُ الْمُعَارِضِ مِنَ الشَّهَوَاتِ.

فَهَذَا الصِّنْفُ وَإِنْ كَانَ مُصِيْباً فِي مَعْرِفَةِ الرَّايَةِ الصَّحِيحَةِ إِلا أَنَّهُ سَبَبٌ فِي صَدِّ النَّاسِ عَنْهَا وَالزُّهْدِ فِيْهَا؛ لأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ لَمْ يَصِلْ بِهَا إِلَى الْمَصَالِحِ الْمَطْلُوبَةِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ، فَظَنُّوا أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ فَسَادُ الرَّايَةِ، وَلَمْ يَفْطَنُوا إِلَى ضَعْفِ حَامِلِهَا وَعَدَمِ جِدِّهِ فِي السَّيْرِ خَلْفَهَا وَبَذْلِهِ وِسْعَهُ فِي نَيْلِ مَطْلُوبِهِ.

فَهَذَا الَّذِي سَبَقَ هُوَ خُلاصَةُ الصِّرَاعِ بَيْنَ الشِّعَارَاتِ فِي السَّاحَةِ الإِسْلامِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، وَالْمَطْلُوبُ الرُّجُوعُ إِلَى كِتَابِ اللهِ -تَعَالَى- وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حَتَّى نَعْلَمَ مَا هِيَ الْمَقَاصِدُ الْمَطْلُوبَةُ مِنَ العِبَادِ حَتَّى يَصُوغُوا مِنْ مَادَتِهَا أَهْدَافَهُمْ الَّتِي يَعْمَلُونَ تَحْتَهَا.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الْمَطَالِبَ الإِلَهِيَّةَ، وَالْمَقَاصِدَ الشَّرْعِيَّةَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ -وَخَاصَةً وَقْتَ الفِتَنِ- تَكُونُ فِي النُّقَاطِ التَالِيَةِ:

١) تَحْدِيدِ مَصَادِرِ الشَّرِيعَةِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ.

وَيَتَفَرَّعُ عَنْ ذَلِكَ: إِرْجَاعُ مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ النَّوَازِلِ العَامَّةِ إِلَى العُلَمَاءِ الرَّبَانِيِّينَ دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُتَصَدِّرِينَ.

٢) تَحْدِيدِ مَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ فِي التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ.

وَيَتَفَرَّعُ عَنْ ذَلِكَ: حِفْظُ الضَّرُورِيَاتِ الخَمْسِ: (الدِّينِ، وَالنَّفْسِ، وَالعِرْضِ، وَالعَقْلِ ، وَالْمَالِ).

٣) الرُّجُوعِ إِلَى اللهِ –تَعَالَى– بالعِبَادَةِ وَالإِعَانَةِ.

وَيَتَفَرَّعُ عَنْ ذَلِكَ: التَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ، وَالقِيَامُ بِالطَّاعَةِ –فِعْلاً لِلأَمْرِ وَتَرْكاً لِلنَّهْيِ– مَعَ تَعْلِيقِ القُلُوبِ بِاللهِ وَالفَزَعِ إِلَيْهِ وَحْدَهُ فِي النَّوَائِبِ وَالْمِحَنِ.

٤) نُصْرَةِ الدِّينِ بِكُلِّ مَا يَسْتَطِيعُهُ الْمُسْلِمُونَ بِالْمَالِ وَاليَدِ وَاللِّسَانِ.

وَيَتَفَرَّعُ عَنْ ذَلِكَ: القِيَامُ بِالعِلْمِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ – أَمْراً بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْياً عَنِ الْمُنْكَرِ–.

٥) الصَّبْرِ وَالْمُصَابَرَةِ وَالْمُرَابَطَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ –تَعَالَى– عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَاللهُ –تَعَالَى– يَقُولُ: {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}.

فَمِنْ هَذِهِ الْمَادَةِ الرَّبَّانِيَّةِ يُؤَسِّسُ القَادَةُ الحُكَمَاءُ مَطَالِبَهُمُ السَّامِيَةَ وَأَهْدَافَهُمُ النَّبِيلَةَ وَيَقُودُونَ الجَمَاهِيرَ إِلَى مَصَالِحِهِم الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ مَعَ الحِنْكَةِ وَالذَّكَاءِ.

وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ.

النِّدَاءُ الْحَادِي عَشَرَ

مَوْقِفُ الْمُسْلِمِ مِنْ إِذَاعَةِ الشَّائِعَاتِ فِي الْفِتَنِ وَالْأَزَمَاتِ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَالَ اللّهُ –تَعَالَى-: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلاً}[النِّسَاءُ: ٨٣].

لَقَدِ اشْتَمَلَتِ الآيَةُ المُبَارَكَةُ عَلَى ثَلاثَةِ مَقَاصِدَ رَئِيْسِيَّةٍ: اثْنَيْنِ فِي بَيَانِ مَوْقِفِ المُسْلِمِ مِنَ الأَخْبَارِ زَمَنَ الفِتْنَةِ، وَثَالِثٍ فِي بَيَانِ السَّبِيلِ المُنْجِي مِنْ مُتَابَعَةِ الشَّيْطَانِ.

أَمَّا المَقْصَدُ الأَوَّلُ:

فَهُوَ بَيَانُ أَنَّ إِذَاعَةَ الشَّائِعَاتِ فِي الْفِتَنِ وَالأَزَمَاتِ دُوْنَ تَثَبُّتٍ مِنْ صِفَاتِ المُنَافِقِيْنَ، وَضُعَفَاءِ الإِيْمَانِ.

وَقَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ} أَيْ: أَفْشَوْهُ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ —رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا—.

قَالَ السَّعْدِيُّ —رَحِمَهُ اللهُ—: "هَذَا تَأْدِيْبٌ مِنَ اللهِ لِعِبَادِهِ عَنْ فِعْلِهِمْ هَذَا غَيْرِ اللائِقِ. وَأَنَّهُ يَنْبَغِي لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأُمُورِ المُهِمَّةِ وَالمَصَالِحِ العَامَّةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالأَمْنِ وَسُرُورِ الْمُؤْمِنِيْنَ، أَوْ بِالْخَوْفِ الَّذِي فِيْهِ مُصِيْبَةٌ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَثَبَّتُوا وَلا يَسْتَعْجِلُوا بِإِشَاعَةِ ذَلِكَ الْخَبَرِ".

(تَيْسِيرُ الكَرِيْمِ الرَّحْمَنِ، ص: ١٩٠).

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي الآيَةِ-: "إِنْكَارٌ عَلَى مَنْ يُبَادِرُ إِلَى الأُمُورِ قَبْلَ تَحقُّقِهَا، فَيُخْبِرُ بِهَا وَيُفْشِيْهَا وَيَنْشُرُهَا، وَقَدْ لا يَكُونُ لَهَا صِحَّةٌ" (تَفْسِيْرُ القُرْآنِ العَظِيْمِ: ٢/ ٣٦٥).

وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُ يَؤُولُ إِلَى الْكَذِبِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: "كَفَى بِالمَرْءِ كَذِبَاً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ" (صَحِيحٌ، مُسْلِمٌ: المُقَدِّمَةُ).

وَفِي الصَّحِيْحَيْنِ عَنِ الْمُغِيْرَةِ بْنِ شُعْبَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: "أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَهَى عَنْ قِيْلٍ وَقَالَ".

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللهُ-: "أَيْ: الَّذِي يُكْثِرُ مِنَ الحَدِيْثِ عَمَّا يَقُولُ النَّاسُ مِنْ غَيْرِ تَثَبُّتٍ، وَلا تَدَبُّرٍ، وَلا تَبَيُّنٍ".

(تَفْسِيْرُ القُرْآنِ العَظِيْمِ: ٢/ ٣٦٥).

فَنَقْلُ الأَخْبَارِ دُوْنَ تَثَبُّتٍ مَرْكَبٌ بَئِيسٌ يُوْصِلُ صَاحِبَهُ إِلَى كُلِّ هَلاكٍ وَضَلالٍ وَشَقَاءٍ، وَإِلَى كُلِّ نِهَايَةٍ سَيِّئَةٍ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا" (صَحِيْحُ الجَامِعِ، رقم: ٢٨٤٦).

فَبَثُّ الشَّائِعَاتِ وَقْتَ الفِتَنِ وَالأَزَمَاتِ فِيْهِ مَفَاسِدُ كَثِيْرَاتٌ، مِنْهَا:

☐ إِضْعَافُ إِيْمَانِ المُؤْمِنِيْنَ وَيَقِينِهِمْ، وَإِضْعَافُ تَوَكُّلِهِمْ عَلَى اللهِ، وَتَقْنِيطُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَتَبْعَثُ عَلَى عَدَمِ حُسْنِ ظَنِّهِمْ بِاللهِ -تَعَالَى-.

☐ وَمِنْهَا تَحْزِيْنُ المُؤْمِنِيْنَ، وَتَخْوِيفُهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ، وَتَثْبِيْطٌ لَهُمْ عَنِ القِيَامِ بِمَصَالِحِهِمْ، وَبَثٌّ لِلرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ.

☐ وَمِنْهَا اضْطِرَابُ مَصَالِحِ النَّاسِ المَعِيْشِيَّةِ، وَاسْتِغْلالُ الجَشِعِيْنَ مِنَ التُّجَارِ وَأَصْحَابِ المَصَالِحِ لَهَا فِي مَنَافِعِهِمْ الخَاصَّةِ مِنْ غَلاءِ الأَسْعَارِ وَاحْتِكَارِ السِّلَعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

□ وَمِنْهَا تَتَفَشَّى الغِيْبَةُ، وَيَكْثُرُ البُهْتَانُ وَالكَذِبُ وَالافْتِرَاءُ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَسُوءُ الظُّنُونُ.

□ وَمِنْهَا يَحْصُلُ التَّضْلِيْلُ وَالتَّعْمِيَةُ مِنْ قِبَلِ الأَعْدَاءِ وَالحَاقِدِيْنَ مُسْتَغِلِّيْنَ الفَضَائِيَاتِ وَنَحْوَهَا حَتَّى يَنْتَشِرَ الجَهْلُ، وَتَغِيْبَ الحَقِيْقَةُ عَنِ النَّاسِ.

وَالمَطْلُوْبُ: التَّبَيُّنُ وَالتَّثَبُّتُ مِنَ الأَخْبَارِ فِي كُلِّ الأَوْقَاتِ وَالأَحْوَالِ بِصُورَةٍ عَامَّةٍ، وَفِي وَقْتِ الأَزَمَاتِ وَالفِتَنِ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ}[الحُجُرَاتُ: ٦].

وَمِنَ التَّبَيُّنِ مَا تَضَمَّنَهُ المَقْصَدُ الثَّانِي:

وَهُوَ: بَيَانُ أَنَّ الوَاجِبَ إِرْجَاعُ كُلِّ خَبَرٍ إِلَى الشَّرْعِ، وَمَعْرِفَةُ قَوْلِ الْعُلَمَاءِ الرَّاسِخِيْنَ فِيْهِ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}.

قَالَ السّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: "وَفِي هَذَا دَلِيْلٌ لِقَاعِدَةٍ أَدَبِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ بَحْثٌ فِي أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ يَنْبَغِي أَنْ يُوَلَّى مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ وَيُجْعَلَ إِلَى أَهْلِهِ، وَلا يُتَقَدَّمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمِ؛ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ وَأَحْرَى لِلسَّلامَةِ مِنَ الخَطَأ".

(تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: ١٩٠).

وَالْعَالِمُ الَّذِي تُسْنَدُ إِلَيْهِ الْفَتْوَى فِي النَّازِلَةِ، وَتُرَدُّ إِلَيْهِ أَخْبَارُهَا لِلنَّظَرِ فِيْهَا هُوَ مَنْ وَصَفَهُ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ- بِقَوْلِهِ: "الْعَالِمُ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ فَهُوَ الْمُجْتَهِدُ فِي أَحْكَامِ النَّوَازِلِ يَقْصِدُ فِيْهَا مُوَافَقَةَ الأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَةِ حَيْثُ كَانَتْ" (إِعْلامُ الْمُوَقِّعِيْنَ: ٤/٢١٢).

فَإِذَا أُسْنِدَتِ الْفَتْوَى فِي النَّازِلَةِ إِلَى غَيْرِ الْعَالِمِ الرَّاسِخِ حَصَلَ الضَّلالُ وَالفَسَادُ، وَاضْطَرَبَتْ أَحْوَالُ البِلادِ وَالعِبَادِ، كَمَا يُوَضِّحُ ذَلِكَ مَا جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ

العِلْمَ انْتِزَاعاً يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِماً، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالاً، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا".

(متفقٌ عَلَيْهِ).

وَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنْ تَكَلُّمِ الرُّوَيْبِضَاتِ وَتَصَدُّرِ السُّفَهَاءِ فِي شُؤُونِ الأُمَّةِ، وَمَصَالِحِهَا العَامَّةِ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ».

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟

قَالَ: «الرَّجُلُ التَّافِهُ يَنْطِقُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ».

(صَحِيْحُ الجَامِعِ، برقم: ٣٦٥٠).

وَأَمَّا المَقْصَدُ الثَّالِثُ:

فَهُوَ فِي بَيَانِ أَنَّ المَانِعَ مِنْ مَسَالِكِ الشَّيْطَانِ فِي الْفِتْنَةِ هُوَ: (حِفْظُ اللهِ الْعَبْدَ؛ بِتَوْفِيقِهِ وَتَعْلِيمِهِ).

قَالَ -تَعَالَى-: {وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلاً}.

قَالَ السَّعْدِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: "{وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ} أَيْ: فِي تَوْفِيقِكُمْ وَتَأْدِيبِكُمْ، وَتَعْلِيمِكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ، {لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلا}" (تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: ١٩٠).

فَالسَّبَبُ الَّذِي أَوْجَبَ حِفْظَهُمْ، وَعَدَمَ اتِّبَاعِهِمِ الشَّيْطَانَ هُوَ (التَّوْفِيقُ)، (وَالتَّعْلِيمُ).

فَاللهُ -سُبْحَانَهُ- هُوَ الَّذِي يَحْفَظُ الْمُؤْمِنِيْنَ، وَيُوَفِّقُهُمْ إِلَى مَصَالِحِ دِيْنِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ بِمَا يُدْرِكُونَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ أَسْرَارِ أُصُولِ المَصَالِحِ، وَتَفَاصِيْلِهَا المَبْثُوثَةِ فِي الإِسْلامِ وَالسُّنَّةِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-: "وَقَدْ دَارَتْ أَقْوَالُ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ فَضْلَ اللهِ وَرَحْمَتَهُ: (الإِسْلامُ)، (وَالسُّنَّةُ)".

(اجْتِمَاعُ الجُيُوشِ الإِسْلامِيَّةِ، ص: ٣ - ٦).

وَقَالَ الذَّهَبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"... قَالَ مُجَاهِدٌ-رَحِمَهُ اللهُ-: "مَا أَدْرِي أَيُّ النِّعْمَتَيْنِ أَعْظَمُ؛ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلام، أَوْ عَافَانِي مِنْ هَذِهِ الأَهْوَاءِ" قُلْتُ: مِثْل الرَّفْضِ، وَالقَدَرِ، وَالتَّجَهُّمِ".

(سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاءِ: ٤/٤٥٥).

وَ"كَانَ أَبُو العَالِيَةِ يَقُولُ: مَا أَدْرِي أَيُّ النِّعْمَتَيْنِ عَلَيَّ أَفْضَلُ: نِعْمَةِ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلامِ، وَنِعْمَةِ إِذْ لَمْ يَجْعَلْنِي حَرُورِيّاً".

(شُعَبُ الإِيمَانِ لِلْبَيْهَقِيِّ: ٤/١٢١).

فَالَّذِي يُرِيدُ الأَمْنَ فِي الدَّارَيْنِ، وَالاهْتِدَاءَ التَّامَّ إِلَى المَصَالِحِ العَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ، وَإِلَى كُلِّ مَنْفَعَةٍ مَرْجُوَّةٍ، وَالخَلاصَ مِنَ الضَرَرِ الوَاقِعِ وَالمُتَوَقَّعِ؛ فَعَلَيْهِ بِلُزُومِ الإِسْلامِ وَالسُّنَّةِ.

قَالَ المَرْوَذِيُّ: قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ اللهِ (يَعْنِي: أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَل): "مَنْ مَاتَ عَلَى الإِسْلامِ وَالسُّنَّةِ، مَاتَ عَلَى الخَيْرِ؟

فَقَالَ: اسْكُتْ. بَلْ مَاتَ عَلَى الخَيْرِ كُلِّهِ".

(سِيَرُ أَعْلامِ النُّبَلاءِ: ١١/ ٢٩٦).

{قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يُونسُ: ٥٨].

النِّدَاءُ الثَّانِي عَشَرَ

النَّازِلَةُ حَاضِنَةُ الأَهْوَاءِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ الْقُلُوبَ فِيْهَا كَمَائِنُ مُخْتَفِيَةٌ، وَدَسَائِسُ مُخْتَبِئَةٌ، كَالأَرْضِ تَجْمَعُ فِي بَاطِنِهَا أَصْنَافاً مِنَ البُذُورِ، فَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهَا المَاءُ انْبَتَتِ الزُّرُوعَ وَالأَشْجَارَ مِنْ جِنْسِ كُلِّ بَذْرَةٍ.

وَكَذَلِكَ بَعْضُ القُلُوبِ فِيْهَا مِنْ بُذُورِ الشُّكُوكِ وَالشُّبَهِ وَالشَّهَوَاتِ أَصْنَافاً، تُهَيِّجُهَا المِحَنُ وَالنَّوَازِلُ، كَمَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ – رَحِمَهُ اللّهُ–: "وَكَمَائِنُ الْقُلُوبِ تَظْهَرُ عِنْدَ الْمِحَنِ".

(مَجْمُوعُ الفَتَاوَى: ٢٠/٩).

فَتَتَوَلَّدُ الأَهْوَاءُ مِنْ هَذَا اللَّقَاحِ بَيْنَ الْمُخَبَّآتِ القَلْبِيَّةِ، وَالنَّوَازِلِ القَدَرِيَّةِ، ثُمَّ تَكُونُ النَّازِلَةُ كَالحَاضِنَةِ الَّتِي تَقُومُ عَلَى تَرْبِيَةِ الصَغِيْرِ؛ تَقُودُهُ وَتَسُوسُهُ، وَتُغَذِّيْهِ وَتُنَمِّيْهِ.

وَكَمَائِنُ القُلُوبِ عَلَى نَوْعَيْنِ:

- (شَهَوَاتٍ).
- (وَشُبُهَاتٍ).

– وَقَدْ يَنْفَرِدُ المَفْتُونُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا.

– وَقَدْ يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِهِ –غَيّاً وَضَلالاً–.

وَتَأْثِيْرُ النَّازِلَةِ فِي تَهْيِيجِ الشَّهَوَاتِ، وَالشُّبُهَاتِ يَنْبَنِي عَلَى ضَعْفِ الإِيْمَانِ بِسَبَبِ الْمُزَاحِمِ مِنْهَا لِلْعِلْمِ وَالعَمَلِ القَلْبِيِّ؛ فَلا يَبْقَى فِي قَلْبِ العَبْدِ إِلا إِيْمَانَاً هَزِيْلاً، لا يَثْبُتُ عِنْدَ المِحْنَةِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ –رحمه الله-:

"وَهَذَا حَالُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِنَا أَوْ أَكْثَرِهِمْ إذَا اُبْتُلُوا بِالْمِحَنِ الَّتِي يَتَضَعْضَعُ فِيهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ يَنْقُصُ إيمَانُهُمْ كَثِيرًا وَيُنَافِقُ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُظْهِرُ الرِّدَّةَ إذَا كَانَ الْعَدُوُّ غَالِبًا؛ وَقَدْ رَأَيْنَا وَرَأَى غَيْرُنَا مِنْ هَذَا مَا فِيهِ عِبْرَةٌ.

وَإِذَا كَانَتْ الْعَافِيَةُ أَوْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ ظَاهِرِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ.

وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِالرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَكِنْ إيمَانًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الْمِحْنَةِ. وَلِهَذَا يَكْثُرُ فِي هَؤُلَاءِ تَرْكُ الْفَرَائِضِ وَانْتِهَاكُ الْمَحَارِمِ.

وَهَؤُلَاءِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا: {آمَنَّا} فَقِيلَ لَهُمْ: {قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}".

(مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى: ٧/٢٨١).

وَاعْلَمْ أَنَّ النَّازِلَةَ وَإِنْ كَانَ الوَاقِعُ ظَرْفاً –زَمَانِيّاً أَوْ مَكَانِيّاً– لأَحْدَاثِهَا إلا أَنَّ القَلْبَ هُوَ المَقْصُودُ بِهَا، وَالمُسْتَهْدَفُ بِمُجْرَيَاتِهَا.

فَالنَّازِلَةُ فِي الحَقِيقَةِ نَازِلَةٌ عَلَى القُلُوبِ، وَإِنْ تَعَلَّقَتْ بِالبَدَنِ وَالمَكَانِ –وَاقِعاً–، وَكَانَتْ لَهُمَا بَعْضُ أَحْكَامِهَا.

وَقَدْ قَالَ –سُبْحَانَهُ–: {الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ}[العَنْكَبُوت: ١ – ٣].

فَالنَّازِلَةُ لا تَكْتَفِي بِتَهْيِيجِ الْهَوَى وَبَعْثِهِ فِي الْقَلْبِ.

بَلْ تَقُومُ أَحْدَاثُهَا، وَمُجْرَيَاتُهَا بِتَغْذِيَتِهِ وَمَدِّهِ بِمَا يُبْقِيهِ وَيُقَوِّيهِ، فَهِيَ: (حَاضِنَةُ الْهَوَى).

حَقِيْقَةُ حَضَانَةِ النَّازِلَةِ لِلأَهْوَاءِ .

مِنْ خِلال تَوالِي أَحْدَاثِ النَّازِلَةِ، وَتَكَرُّرِ مَشاهِدِها، وَتَداخُلِ أَحْكَامِهَا، وَتأَخُّرِ انْجِلائِهَا، وَتَراكُمِ ظُلُمَاتِهَا تَنْمُو بَذْرَةُ الفِتْنَةِ فِي قَلْبِ المَفْتُونِ، كَأَنَّمَا تَنْضُجُ عَلَى نَارٍ هَادِئَةٍ؛ لأَنَّ أَخْبَارَ الفِتْنَةِ وَمَشاهِدَهَا تَنْفُذُ إِلَى القُلُوبِ مُهَيِّجَةً عَوَاطِفَهَا، وَمُحَرِّكَةً أَهْوَائهَا، فَإِذَا وَافقَتْهَا بَعْضُ المُتَشَابِهَاتِ، وَاقْتَرَنَ بِهَا زَلَلُ بَعْضِ المُعَظَّمِيْنَ فِي قَلْبِ المَفْتُونِ فَسَيُسْفِرُ مَخَاضُهَا عَنْ مَوْلُودٍ جَدِيْدٍ فِي قَائِمَةِ الأَفْكَارِ وَالأَهْوَاءِ.

فَإِذَا غُذِّيَ هَذَا الفِكْرُ الوَلِيْدُ بِأَخْبَارِ وَمَشَاهِدِ القَنَوَاتِ الإِخْبَارِيَةِ، وَأَحْكَامِ مَنَابِرِ التَّهْيِيجِ العَاطِفِيَّةِ؛ فَعِنْدَهَا تَسْتَوْفِي النَّازِلَةُ مُدَّةَ حَضَانَتِهَا مُخَلِّفَةً (مَقَالَةً بِدْعِيَّةً) يَجْتَمِعُ حَوْلَهَا جَمَاعَةٌ مِنَ المَفْتُونِيْنَ يَرْفَعُونَ لِوَاءَهَا، وَيَتَخَنْدَقُونَ لِلذَّبِ عَنْهَا مُعْلِنَيْنَ حَرْبَاً كَلامِيَّةً عَلَى كُلِّ مَنْ خَالَفَهُمْ فِي صُورَةِ جَدَلٍ وَمِرَاءٍ مَذْمُومٍ.

وَطَرِيْقُ النَّجَاةِ مِنَ الفِتْنَةِ يَكُونُ بِتَحْقِيقِ الإِيْمَانِ القَلْبِيِّ -الَّذِي يَدْفَعُ وَيَرْفَعُ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ- عِلْمَاً وَعَمَلاً، فَالْعِلْمُ يَمْنَعُ الشُّبْهَةَ، وَالعَمَلُ يَمْنَعُ الشَّهْوَةَ.

وَجِمَاعُ ذَلِكَ (طَمَأْنِيْنَةُ القَلْبِ بِإِيْمَانِهِ، وَانْتِفَاءِ رِيَبِهِ، كَمَا قَالَ —تَعَالَى-: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحُجُرَات: ١٥].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

"فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ رَيْبٌ عِنْدَ الْمِحَنِ الَّتِي تُقَلْقِلُ الْإِيمَانَ فِي الْقُلُوبِ وَالرَّيْبُ يَكُونُ فِي عِلْمِ الْقَلْبِ وَفِي عَمَلِ الْقَلْبِ؛ بِخِلَافِ الشَّكِّ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إلَّا فِي الْعِلْمِ.

وَلِهَذَا لَا يُوصَفُ بِالْيَقِينِ إلَّا مَنْ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ عِلْمًا وَعَمَلًا؛ وَإِلَّا فَإِذَا كَانَ عَالِمًا بِالْحَقِّ؛ وَلَكِنَّ الْمُصِيبَةَ أَوْ الْخَوْفَ أَوْرَثَهُ جَزَعًا عَظِيمًا لَمْ

يَكُنْ صَاحِبَ يَقِينٍ. قَالَ –تَعَالَى–: {هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا}" (مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى: ٧/٢٨١).

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ –رَحِمَهُ اللهُ–: "وَقَوْلُهُ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ} أَيْ: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الكُمَّلُ {الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا} أَيْ: لَمْ يَشُكُّوا وَلا تَزَلْزَلُوا. بَلْ ثَبَتُوا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ التَّصْدِيقُ الْمَحْضُ، {وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} أَيْ: وَبَذَلُوا مُهَجَهُمْ، وَنَفَائِسَ أَمْوَالِهِمْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ، {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} أَيْ: فِي قَوْلِهِمْ إِذَا قَالُوا: "إِنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ"، لا كَبَعْضِ الأَعْرَابِ الَّذِينَ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنَ الدِّيْنِ إِلا الكَلِمَةُ الظَّاهِرَةُ".

(تَفْسِيْرُ القُرْآنِ العَظِيْمِ: ٧/٣٩٠).

فَفِي الصِّدْقِ الْمُورِثِ صَاحِبَهُ عِلْمَ القَلْبِ وَعَمَلَهُ، وَالْمُثْمِرِ لَهُ طَمَأْنِيْنَتَهُ تَكُونُ النَّجَاةُ مِنَ الفِتْنَةِ، وَاللهُ العَاصِمُ.

النِّدَاءُ الثَّالِثَ عَشَرَ

الرَّبِيعُ القُرْآني

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِينِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ الإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ حَيٌّ يُحِسُّ مَا حَوْلَهُ وَيَتَحَرَّكُ بِإِرَادَتِهِ لِتَحْصِيلِ مَصَالِحِهِ اجْتِلاباً لِلْمَنَافِعِ، وَاجْتِنَاباً لِلْمَضَارِّ، وَعَمَلُهُ بِمُقْتَضَى ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى سَلامَةِ فِطْرَتِهِ.

فَهُوَ حَيُّ الحَيَاةَ البَدَنِيَّةَ الَّتِي مِنْ تَمَامِهَا أَنَّهُ يُحِسُّ مِنْ خِلالِ مَا رُكِّبَ فِيهِ مِنَ الحَوَاسِّ مَا حَوْلَهُ مِنَ الأَشْيَاءِ، وَهُوَ يَتَفَاعَلُ مَعَ الْمُتَغَيِّرَاتِ بِمَا يُحَقِّقُ مَصْلَحَتَهُ.

وَعَدَمُ تَأَثُّرِهِ بِالْمُتَغَيِّرَاتِ —وَخَاصَةً الَّتِي تَسْلبُ عَنْهُ مَنَافِعَهُ، وَتُضِرُّ بِهِ— دَلِيلٌ عَلَى خَلَلٍ فِي حَيَاتِهِ البَدَنِيَّةِ، وَدَلِيلٌ عَلَى فَسَادٍ فِي فِطْرَتِهِ.

فَهُوَ يَدْفَعُ وَاقِعَ الجُوعِ بِالطَّعَامِ، وَوَاقِعَ العَطَشِ بِالْمَاءِ، وَوَاقِعَ الأَلَمِ بِالدَّوَاءِ. فَطَلَبُهُ تَغْيِيرَ الوَاقِعِ الْمُضِرِّ غَيْرِ النَّافِعِ هُوَ مَطْلَبٌ فِطْرِيٌّ، يَدُلُّ عَلَى تَمَامِ حَيَاتِهِ، وَسَلامَةِ فِطْرَتِهِ.

وَطَلَبُهُ لِلْمُغَيِّرِ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى عِلْمٍ يَشْهَدُ لَهُ بِصِحَّتِهِ مِنْ عَادَةٍ أَوْ عَقْلٍ أَوْ شَرْعٍ —بِمَا يُنَاسِبُ كُلَّ وَاقِعٍ— وَإِلا كَانَ سَعْيُهُ عَبَثاً، وَجُهْدُهُ ضَائِعاً، وَقَدْ يَعُودُ الْمُغَيِّرُ عَلَيْهِ بِالضَّرَرِ، فَلا يُبْقِي مِنْهُ عَيْنٌ وَلا أَثَرٌ.

فَالوَاجِبُ طَلَبُ الْمُغَيِّرِ النَّافِعِ الَّذِي يُحَصِّلُ الْمَقْصُودَ، وَلا يُفَوِّتُهُ. فَضَلاً عَمَّا يُضِرُّ بِهِ وَيُتْلِفُهُ.

وَالعَبْدُ وَإِنْ كَانَ مَجْبُولاً عَلَى تَحْصِيلِ مَصَالِحِهِ مِنْ جِهَةِ فِطْرَتِهِ العَقْلِيَّةِ، إِلا أَنَّهُ خُلِقَ جَاهِلاً بِتَفَاصِيلِ مَا يَنْفعُهُ، وَفِيهِ ظُلْمٌ يَدْفَعُهُ إِلَى تَعَدِّي حَقِّهِ وَطَلَبِ مَا يَضُرُّهُ وَلا يَنْفَعُهُ وَذَلِكَ مِنْ جِهَةِ شَهْوَتِهِ، كَمَا قَالَ —تَعَالَى—: {إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} [الأَحْزَابُ: ٧٢].

وَلَمَّا كَانَ هَذَا حَالَهُ تعَيَّنَ أَنْ يَلْجَأَ إِلَى عِلْمٍ صَحِيحٍ يَهْدِيهِ وَيَرْفَعُ بِهِ جَهْلَهُ، وَإِلَى عَدْلٍ يُزَكِّيهِ وَيَرْفَعُ بِهِ ظُلْمَهُ. وَلا سَبِيلَ لَهُ إِلَى ذَلِكَ إلا بِتَوْفِيقِ اللهِ —تَعَالَى— لَهُ {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الْمُلْكُ: ١٤].

وَسَبِيلُهُ الصَّحِيحُ إِلَى تَحْصِيلِ مَطْلَبِهِ (الوَحْيُ) وَلا سَبِيلَ لَهُ إلا ذَلِكَ، فَحَاجَتُهُ إِلَى (الرِّسَالَةِ) ضَرُورِيَّةٌ.

وَهَذِهِ الضَّرُورَةُ سُدَّتْ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ —صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم—

وَهِيَ:

- (القُرْآنُ وَالسُّنَّةُ).
- وَمَا اشْتَمَلا عَلَيْهِ مِنَ (الإِيمَانِ) —عَقِيدَةً، وَقَوْلاً، وَعَمَلاً—.

فَمَعْرِفَةُ ذَلِك.

وَالعَمَلُ بِهِ يُوجِبَانِ تَوْفِيقَهُ لِمَصَالِحِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ.

قَالَ شيخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ –رَحِمَهُ اللهُ-: "فَالنُّفُوسُ أَحْوَجُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ، وَاتِّبَاعِهِ مِنْهَا إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فَإِنَّ هَذَا إِذَا فَاتَ حَصَلَ الْمَوْتُ فِي الدُّنْيَا . وَذَاكَ إِذَا فَاتَ حَصَلَ الْعَذَابُ . فَحَقَّ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ بَذْلُ جُهْدِهِ وَاسْتِطَاعَتِهِ فِي مَعْرِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ وَطَاعَتِهِ إذْ هَذَا طَرِيقُ النَّجَاةِ مِنْ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالسَّعَادَةِ فِي دَارِ النَّعِيمِ" (مَجْمُوعُ الفَتَاوَى: ١/٥-٦).

وَلا شَكَّ أَنَّ الأُمَّةَ اليَوْمَ تَمُرُّ بِمِحَنٍ شَدِيدَةٍ، وَفِتَنٍ مَرِيرَةٍ. ظَلامُهَا مُخَيِّمٌ فِي أُفُقٍ مَجْهُولٍ، لا يُدْرَى مَا يَصِيرُ النَّاسُ إِلَيْهِ. فَتَجِدُ الْمَرْءَ فِي الصَّبَاحِ لَهُ رَأْيٌ، وَفِي الْمَسَاءِ لَهُ رَأْيٌ يُنَاقِضُهُ.

فَتَمُرُّ الأُمَّةُ فِي دِهْلِيزٍ قَاتِمٍ؛ آرَاءٌ مُشَتَّتَةٌ، وَأَحْكَامٌ مُتَنَاقِضَةٌ، وَمَشَارِبُ مُخْتَلِفَةٌ وَ{كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}[الْمُؤْمِنُونَ: ٥٤].

فَالغَيُورُ يَتَأَلَّمُ (غَماً) عَلَى وَاقِعٍ بَئِيسٍ، (وَحُزْناً) عَلَى مَاضٍ مَنْهُوبٍ، (وَهَمّاً) عَلَى مُسْتَقْبَلٍ مَجْهُولٍ. وَالكُلُّ يَسْعَى طَلَبَاً لِلتَّغْيِيرِ.

(وَالعِلاجُ النَّبَوِيُّ) فِي (الرَّبِيعِ القُرْآنِيِّ) فَهُوَ الْمُزِيلُ وَالْمُغَيِّرُ لِكُلِّ أَمْرٍ مَكْرُوهٍ.

فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ قَالَ:

"مَا أَصَابَ عَبْدًا قَطُّ هَمٌّ وَلا غَمٌّ وَلا حُزْنٌ فَقَالَ:

اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، ابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ. أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي إِلا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَغَمَّهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَحًا.

قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ: أَفَلا نَتَعَلَّمُهُنَّ؟

قَالَ: بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ يَسْمَعُهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ"

(صَحِيحٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ–: "فَقَدْ دَلَّ هَذَا الحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَلَى أَشْيَاءَ، مِنْهَا: أَنَّهُ اسْتَوْعَبَ أَقْسَامَ الْمَكْرُوهِ الوَارِدَةِ عَلَى القَلْبِ:

(فَالهَمُّ) يَكُونُ عَلَى مَكْرُوهٍ يُتَوَقَّعُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ يَهْتَمُّ بِهِ القَلْبُ.

(وَالحُزْنُ) عَلَى مَكْرُوهٍ مَاضٍ مِنْ فَوَاتِ مَحْبُوبٍ أَوْ حُصُولِ مَكْرُوهٍ إِذَا تَذَكَّرَهُ أَحْدَثَ لَهُ حُزْنًا.

(وَالغَمُّ) يَكُونُ عَلَى مَكْرُوهٍ حَاصِلٍ فِي الحَالِ يُوجِبُ لِصَاحِبِهِ الغَمَّ. فَهَذِهِ الْمَكْرُوهَاتِ هِيَ مِنْ أَعْظَمِ أَمْرَاضِ القَلْبِ وَأَدْوَائِهِ، وَقَدْ تَنَوَّعَ النَّاسُ فِي طُرُقِ أَدْوِيَتِهَا وَالخَلاصِ مِنْهَا، وَتَبَايَنَتْ طُرُقُهُمْ فِي ذَلِكَ تَبَايُنَاً لا يُحْصِيهِ إِلا اللهُ.

بَلْ كُلُّ أَحَدٍ يَسْعَى فِي التَّخَلُّصِ مِنْهَا بِمَا يَظُنُّ أَوْ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يُخَلِّصُهُ مِنْهَا، وَأَكْثَرُ الطُّرُقِ وَالأَدْوِيَةِ الَّتِي يَسْتَعْمِلُهَا النَّاسُ فِي الخَلاصِ مِنْهَا لا يَزِيدُهَا إِلا شِدَّةً، كَمَنْ يَتَدَاوَى مِنْهَا بِالْمَعَاصِي عَلَى اخْتِلافِهَا مِنْ أَكْبَرِ كَبَائِرِهَا إِلَى أَصْغَرِهَا، وَكَمَنْ يَتَدَاوَى مِنْهَا بِاللَّهْوِ وَاللَّعِبِ وَالغِنَاءِ وَسَمَاعِ الأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

فَأَكْثَرُ سَعْيِ بَنِي آدَمَ أَوْ كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ لِدَفْعِ هَذِهِ الأُمُورِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْهَا وَكُلُّهُمْ قَدْ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ إِلا مَنْ سَعَى فِي إِزَالَتِهَا بِالدَّوَاءِ الَّذِي (وَصَفَهُ اللهُ) لإِزَالَتِهَا وَهُوَ دَوَاءٌ مُرَكَّبٌ مِنْ مَجْمُوعِ أُمُورٍ مَتَى نَقَصَ مِنْهَا جُزْءٌ نَقَصَ مِنَ الشِّفَاءِ بِقَدْرِهِ.

وَأَعظَمُ أَجْزَاءِ هَذَا الدَّوَاءِ هُوَ (التَّوْحِيدُ)، (وَالاسْتِغْفَارُ) قَالَ – تَعَالَى–: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}[مُحَمَّدٌ: ١٩].

وَلِذَلِكَ كَانَ الدُّعَاءُ الْمُفَرِّجُ لِلْكَرْبِ (مَحْضُ التَّوْحِيدِ) وَهُوَ "لا إِلَهَ إِلا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ".

وَفِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّوْنِ مَا دَعَاهَا مَكْرُوبٌ إِلا فَرَّجَ اللهُ كَرْبَهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ".

(فَالتَّوْحِيدُ) يُدْخِلُ العَبْدَ عَلَى اللهِ، (وَالاسْتِغْفَارُ وَالتَّوْبَةُ) يَرْفَعُ الْمَانِعَ، وَيُزِيلُ الحِجَابَ الَّذِي يَحْجُبُ القَلْبَ عَنِ الوُصُولِ إِلَيهِ فَإِذَا وَصَلَ القَلْبُ إِلَيْهِ زَالَ عَنْهُ (هَمُّهُ)، (وَغَمُّهُ)، (وَحُزْنُهُ).

وَإِذَا انْقَطَعَ عَنْهُ حَضرَتْهُ (الهُمُومُ)، (وَالغُمُومُ)، (وَالأَحْزَانُ) وَأَتَتْهُ مِنْ كُلِّ طَرِيقٍ، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ بَابٍ".

(شِفَاءُ العَلِيلِ، ص: ٢٧٤) .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نَجَاةَ العَبْدِ مِنْ شُرُورِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَسَعَادَتَهُ فِي الدَّارِيْنَ فِي (الرَّبِيعِ القُرْآنِيِّ) قَوْلُهُ –تَعَالَى–: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا}[الشُّورَى: ٥٢].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ –رَحِمَهُ اللهُ–: "فَأَخْبَرَ أَنَّهُ (رُوحٌ) تَحْصُلُ بِهِ الحَيَاةُ، (وَنُورٌ) تَحْصُلُ بِهِ الهِدَايَةُ فَأَتْبَاعُهُ لَهُمُ الحَيَاةُ وَالهِدَايَةُ وَمُخَالِفُوهُ لَهُمُ الْمَوْتُ وَالضَّلالُ"(شِفَاءُ العَلِيلِ، ص: ٢٧٧).

فَالرِّسَالَةُ المُحَمَّدِيَّةُ: (رُوحٌ) تَحْيَى بِهَا قُلُوبُ العِبَادِ، (وَنُورٌ) تُبْصِرُ بِهِ طَرِيقَهَا وَتَهْتَدِي لِمَصَالِحِهَا (فَبِالكِتَابِ تَهْتَدِي)، (وَبِالإِيمَانِ تَزْكُو).

وَأَصْلُ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ: (القُرْآنُ) فَهُوَ الرُّوحُ وَالهُدَى وَالنُّورُ، وَفِيْهِ الحَيَاةُ التَّامَةُ، وَالسَّعَادَةُ الكَامِلَةُ، وَفِيْهِ صَلاحُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ المُغَيِّرَةِ لأَحْوَالِ العِبَادِ، وَكُلُّ سَبَبٍ فَدُونَهُ، بَلْ لا مُقَارَنَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

وَقَدْ وَصَفَ النَّبِيُّ —صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ— الْقُرْآنَ —كَمَا سَبَقَ— بِالرَّبِيعِ، وَالنُّورِ فَقَالَ: "أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي"(صَحِيحٌ رَوَاهُ أَحْمَدُ).

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ —رَحِمَهُ اللهُ—:

"الرَّبِيعُ: هُوَ الْمَطَرُ الْمُنْبِتُ لِلرَّبِيعِ . . .

فَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَهُ مَاءً يُحْيِي بِهِ قَلْبَهُ كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ بِالرَّبِيعِ. وَنُورًا لِصَدْرِهِ، (وَالْحَيَاةُ) (وَالنُّورُ) جِمَاعُ الْكَمَالِ، كَمَا قَالَ: {أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ}".

(بِتَصَرُّفٍ مِنْ مَجْمُوعِ الفَتَاوَى: ١٨/٣١٠-٣١١).

اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قُلُوبِنَا،

وَنُورَ صُدُورِنَا، وَجَلَاءَ حُزْنِنَا، وَذَهَابَ هَمِّنَا.

النِّدَاءُ التَّاسِعُ

أنا سُنِّيٌ أولاً

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ مِنَ المَعَارِكِ الفِكْرِيَةِ الَّتِي تَنْبَعِثُ عَنْهَا أَسَالِيبُ قَمْعِيَّةٌ، وَتَفْتِيتِيَّةٌ، وَاسْتِئْصَالِيَّةٌ هِيَ: (مَعَارِكُ الانْتِمَاءِ).

وَإِنَّ مِنَ الحَقَائِقِ الاسْتِقْرَائِيَّةِ لِلْوَقَائِعِ التَّارِيخِيَّةِ أَنَّ الْمُسْتَضْعَفَ تَحْتَ قَهْرِ الظَّالِمِ تَذُوبُ قِيَمُهُ، وَثَوَابِتُهُ.

بَلْ وَمُصْطَلَحَاتُهُ، فِي مَفَاهِيمِ وَقَنَاعَاتِ الظَّالِمِ الْمُتَسَلِّطِ.

وَأَصْلُ هَذَا (الانْسِلاخِ) –عِنْدَ المُسْتَضْعَفِ– نَاشِئٌ مِنْ ضَعْفِ انْتِمَائِهِ لِثَوَابِتِهِ الدِّينِيَّةِ، وَقِيَمِهِ الأَخْلاقِيَّةِ، وَذَلِكَ لِضَعْفِ إِيمَانِهِ وَضَعْفِ وَلائِهِ.

وَحَقِيقَةُ هَذَا المَرَضِ (عُقْدَةِ ذَوَبَانِ الشَّخْصِيَّةِ) تَنْشَأُ عَنْ أَسْبَابٍ مِنْهَا:

أَوّلاً: عَدَمُ فَهْمِ حَقِيقَةِ العِزَّةِ.

اعْلَمْ –وَفَّقَكَ اللهُ لِلْعِزِّ– أَنَّ الأَصْلَ: (أَنَّ العِزَّةَ للّهِ –تَعَالَى–)، فَتُطْلَبُ مِنْهُ بِمَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ وَالانْتِسَابِ إِلَيْهِ، قَالَ –سُبْحَانَهُ–: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً}[فَاطِرٌ: ١٠].

وَطَاعَةُ اللهِ –تَعَالَى– تَكُونُ (بِالإِيمَانِ) الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ (سُنَّةُ الرَّسُولِ الكَرِيمِ)، (وَسُنَّةُ صَحَابَتِهِ المُؤْتَمَنِينَ)، كَمَا قَالَ –عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ–: "فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ بَعْدِي" (صَحِيحُ سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ، وَصَحِيحُ سُنَنِ ابْنِ مَاجَه).

فَالعِزَّةُ تَكُونُ بِالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ الصَحِيحَةِ المُتَضَمِّنَةِ للإِيمَانِ بِاللّهِ –تَعَالَى– وَالإِيمَانِ بِرَسُولِهِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:"(العِزَّةُ)، (وَالعُلُوُّ) إِنَّمَا هُمَا لأَهْلِ الإِيمَانِ الَّذِي بَعَثَ اللّهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ. وَهُوَ (عِلْمٌ، وَعَمَلٌ، وَحَالٌ).

قَالَ -تَعَالَى-: {وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} فَلِلْعَبْدِ مِنَ العُلُوِّ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمَانِ.

وَقَالَ -تَعَالَى-: {وَلِلّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} فَلَهُ مِنَ العِزَّةِ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمَانِ وَحَقَائِقِهِ، فَإِذَا فَاتَهُ حَظٌّ مِنَ العُلُوِّ وَالعِزَّةِ فَفِي مُقَابَلَةِ مَا فَاتَهُ مِنْ حَقَائِقِ الإِيمَانِ عِلْمَاً وَعَمَلاً ظَاهِرَاً وَبَاطِنَاً".

(إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ: ٢/١٨١).

فَلِهَذَا أَنْتَ سُنِّيٌّ أَوَّلاً، وَاسْتَقِمْ عَلَيْهَا أَبَدَاً، وَعِنْدَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ عَزِيزَاً، مَنِيعَاً، مُتَرَبِّعَاً عَلَى أَرُومَةِ الشَّرَفِ فَكُنْ (سُنِّيَاً) فِي القَوْلِ وَالانْتِسَابِ، وَفِي العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَفِي الظَّاهِرِ وَالبَّاطِنِ.

فَالْمُسْتَضْعَفُ إِذَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَمْ تَذُبْ هُوِيَّتُهُ (السُّنِّيَّةِ)، وَهُوَ يُرَدِّدُ: "إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالِيتَ وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيتَ"؛ لأَنَّ القُوَّةَ فِي الحَقِيقَةِ قُوَّةُ القَلْبِ.

"وَالمَقْصُودُ أَنَّ بِحَسَبِ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ تَكُونُ العِزَّةُ وَالكِفَايَةُ وَالنُّصْرَةُ، كَمَا أَنَّ بِحَسَبِ مُتَابَعَتِهِ تَكُونُ الهِدَايَةُ وَالفَلاحُ وَالنَّجَاةُ، فَاللّهُ سُبْحَانَهُ عَلَّقَ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ بِمُتَابَعَتِهِ، وَجَعَلَ شَقَاوَةَ الدَّارَيْنِ فِي مُخَالَفَتِهِ، فَلأَتْبَاعِهِ الهُدَى وَالأَمْنُ، وَالفَلاحُ وَالعِزَّةُ، وَالكِفَايَةُ وَالنُّصْرَةُ، وَالوِلايَةُ وَالتَّأْيِيدُ، وَطِيبُ العَيْشِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلِمُخَالِفِيهِ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ، وَالخَوْفُ وَالضَّلالُ، وَالخِذْلانُ وَالشَّقَاءُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ " قَالَهُ ابْنُ القَيِّمِ –رَحِمَهُ اللّهُ–.

وَمِمَّا يُضْعِفُ هَذِهِ العِزَّةَ مُزَاحَمَةُ الانْتِسَابِ لِلسُّنَّةِ، كَالانْتِسَابِ لِكُلِّ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ: مِنْ قَوْمِيَّةٍ، أَوْ قَبَلِيَّةٍ، أَوْ حِزْبِيَّةٍ، أَوْ طَائِفِيَّةٍ.

فَمَنْ طَلَبَ العِزَّةَ عِنْدَ أَعْدَاءِ اللّهِ –تَعَالَى– وَمِنْ غَيْرِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ فَقَدْ تَطَلَّبَ عَدَماً مَحْضاً، وَسَرَاباً لا حَقِيقَةَ لَهُ، كَمَا قَالَ –سُبْحَانَهُ–: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}[النِّسَاءُ: ١٣٩].

فَمُنْتَهَى الخِذْلانِ أَنْ تُطْلَبَ العِزَّةُ مِمَّنْ يُعَادِي السُّنَّةَ وَيُحَارِبُهَا بِسُلْطَانِهِ وَمَالِهِ، وَيَقْهَرُ حَفَظَتَهَا، وَحَمَلَتَهَا، وَالذَّابِينَ عَنْهَا، وَيَلْعَنُ مَنْ نَاصَرَهَا بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ.

ثَانِيًا: ضَعْفُ الإِيمَانِ بِالثَّوَابِتِ الشَّرْعِيَّةِ.

لا يَكْفِي –عَبْدَ اللهِ– لِنَيْلِ العِزَّةِ وَالتَّمْكِينِ أَنْ تَعْرِفَ (أَنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعاً)، وَأَنَّ طَرِيقَهَا السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ حَتَّى تُؤْمِنَ بِذَلِكَ إِيمَانًا يَبْعَثُ عَلَى العَمَلِ بِهَا، فَتَرْضَى بِهَا، وَتَنْتَسِبَ إِلَيْهَا، وَتُسَلِّمَ لِحُكْمِهَا، وَتُقَدِّمَهَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَتَتَحَاكَمَ إِلَيْهَا، وَتَنْصُرَهَا بِالنَّفْسِ وَالمَالِ وَاللِّسَانِ وَاليَدِ.

فَإِبْلِيسُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ العِزَّةَ للهِ، وَأَقْسَمَ بِهَا: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}، فَلَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ إِذْ خَلا قَلْبُهُ مِنَ الإِيمَانِ المُوْجِبِ للانْقِيَادِ لأَحْكَامِهِ، وَالامْتِثَالِ لأَوَامِرِهِ.

فَمِنْ عَلامَاتِ صِحَّةِ الإِيمَانِ وَقُوَّتِهِ (الرِّضَا بِالسُّنَّةِ) الَّتِي هِيَ (الإِسْلامُ المَحْضُ).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- :

"وَأَمَّا الرِّضَا بِدِينِهِ: فَإِذَا قَالَ أَوْ حَكَمَ أَوْ أَمَرَ أَوْ نَهَى: رَضِيَ كُلَّ الرِّضَا وَلَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهِ حَرَجٌ مِنْ حُكْمِهِ وَسَلَّمَ لَهُ تَسْلِيماً، وَلَوْ كَانَ مُخَالِفاً لِمُرَادِ نَفْسِهِ أَوْ هَوَاهَا أَوْ قَوْلِ مُقَلِّدِهِ وَشَيْخِهِ وَطَائِفَتِهِ.

وَهَهُنَا يُوحِشُكَ النَّاسُ كُلُّهُمْ إِلا الغُرَبَاءَ فِي العَالَمِ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تَسْتَوْحِشَ مِن الاغْتِرَابِ وَالتَّفَرُّدِ فَإِنَّهُ وَاللّهِ؛

- (عَيْنُ العِزَّةِ).
- (وَالصُّحْبَةُ مَعَ اللّهِ وَرَسُولِهِ).
- (وَرُوحُ الأُنْسِ بِهِ).
- (وَالرِّضَا بِهِ رَبّاً، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، وَبِالإِسْلامِ دِيناً)"

(مَدَارِجُ السَّالِكِينَ: ٢/١٧٣).

ثَالِثًا: ضَعْفُ الانْتِمَاءِ إِلَى الثَّوَابِتِ الشَّرْعِيَّةِ.

إنَّ النَّتِيجةَ البَدِيهِيَّةَ عِنْدَ عَدَمِ مَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ العِزَّةِ، وَعِنْدَ ضَعْفِ الإِيمَانِ هِيَ ضَعْفُ انْتِمَاءِ المَغْلُوبِ لِثَوَابِتِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَقِيَمِهِ الأَخْلاقِيَّةِ، وَشُيُوعُ ثَقَافَةِ المُتَسَلِّطِ، وَقَنَاعَاتُهُ الفِكْرِيَّةِ.

وَصَمَّامُ أَمَانِ حِفْظِ الثَّوَابِتِ الشَّرْعِيَّةِ وَدَوَامِهَا هُوَ (الوَلاءُ، وَالبَرَاءُ)، فَهُوَ الأَثَرُ الطَّبِيعِيُّ لِصِدْقِ الانْتِمَاءِ.

فَالوَلاءُ للهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَتَضَمَّنُ:

١) صَحَّةَ الوَعْيِ وَالمَعْرِفَةِ الشَّرْعِيَّةِ.

٢) وَقُوَّةَ الإِيمَانِ بِالشَّرِيعَةِ.

وَالبَرَاءُ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالمُؤْمِنِينَ يَتَضَمَّنُ:

١) التَّحَصُّنَ عَنْ مَعَاوِلِ هَدْمِ الشَّخْصِيَّةِ المُسْلِمَةِ.

قَالَ الذَّهَبِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: "... عَنْ مُجَاهِدٍ –رَحِمَهُ اللهُ– قَالَ:

"مَا أَدْرِي أَيُّ النِّعْمَتِين أَعْظَمُ؛ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلامِ، أَوْ عَافَانِي مِنْ هَذِهِ الأَهْوَاءِ".

قُلْتُ: مِثْل الرَّفْضِ وَالقَدَرِ وَالتَّجَهُّم".(السِّيَرُ: ٤/٤٥٥).

وَ"كَانَ أَبُو العَالِيَةِ –رَحِمَهُ اللهُ– يَقُولُ: مَا أَدْرِي أَيُّ النِّعْمَتِين عَلَيَّ أَفْضَلُ: نِعْمَةِ أَنْ هَدَانِي لِلإِسْلامِ، وَنِعْمَةِ إِذْ لَمْ يَجْعَلْنِي حَرُورِيّاً" (شُعَبُ الإِيمَانِ لِلْبَيْهَقِيِّ: ٤/١٢١).

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ –رَحِمَهُ اللهُ– :"لا عَيْبَ عَلَى مَنْ أَظْهَرَ مَذْهَبَ السَّلَفِ وانْتَسَبَ إِلَيْهِ وَاعْتَزَى إِلَيْهِ، بَلْ يَجِبُ قَبُولُ ذَلِكَ مِنْهُ بِالاتِّفَاقِ، فَإِنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ لا يَكُونُ إِلا حَقّاً" (مَجْمُوعُ الفَتَاوَى: ٤/١٤٩).

وَقَالَ –رَحِمَهُ اللهُ–:"صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ: هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ" (مَجْمُوعُ الفَتَاوَى: ٣/١٥٩).

وَأَخِيراً، وَلَيْسَ آخِراً: (**أَنَا سُنِّيٌّ أَوَّلاً**).

تَبْصِرَةٌ:

اعْلَمْ أَخِي الدَّاعِيَةَ إِلَى اللهِ –تَعَالَى– أَنَّ الأُمَّةَ اليَوْمَ بِحَاجَةٍ إِلَى التَّذْكِيرِ بِالثَّوَابِتِ الشَّرْعِيَّةِ؛ لِيَتَعَلَّمَهَا جَاهِلُهُمْ، وَيَتَذَكَّرَهَا غَافِلُهُمْ.

(فَالصِّرَاعُ الدَّمَوِيُّ) فِي حَقِيقَتِهِ (صِرَاعٌ عَقَدِيٌّ) يَعْمَدُ إِلَى (إِحْكَامِ القَبْضَةِ) عَلَى (المُخَالِفِ) لِيَسْهُلَ تَرْوِيضُهُ عَلَى مَبَادِئِ المُتَغَلِّبِ وَأَفْكَارِهِ وَعَقَائِدِهِ.

(وَالدَّاعِيَةُ الحَكِيمُ) مَنْ يَعْمَلُ عَلَى تَشْيِيدِ الحَقِّ فِي قُلُوبِ الأُمَّةِ، وَيُؤَسِّسَ فِيهِمْ (مَعْرِفَةَ الحَقِّ)، (وَمَحَبَّتَهُ)، (وَالتَّضْحِيَةَ فِي سَبِيلِهِ).

حِكْمَةٌ:

قِيْلَ لِلْحَقِّ: أَيْنَ كُنْتَ فِي صَوْلَةِ البَاطِلِ؟

قَالَ: كُنْتُ اجْتَثُّهُ مِنْ جُذُورِهِ.

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِينِ

وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِين.

النِّدَاءُ الخَامِس عَشَر

مُقَوِّمَاتُ التَّفْكِيرِ الإِيمَانِيِّ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَفِي مُعْتَرَكِ الأَفْهَامِ وَتَضَارُبِ المَعَايِيرِ يَحْتَاجُ العَبْدُ أُسُسَاً صَحِيحَةً يَحْكُمُ بِهَا تَفْكِيرَهُ؛ حَتَّى يَصُونَ عَقْلَهُ مِنْ سَفَهِ الظُّنُونِ، أَوْ طَيْشِ الأَحْلامِ.

وَمِنْ أَهَمِّ هَذِهِ الأُسُسِ: (الإِيْمَانُ بِاللّهِ –تَعَالَى–)، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْهُ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ بِهِ، وَكَمَالِ الثِّقَةِ بِرُبُوبِيَّتِهِ.

وَمِنَ المَعَانِي الْمُهِمَّةِ الَّتِي يَتَعَيَّنُ بَثُّهَا بَيْنَ أَفْرَادِ الأُمَّةِ المَنْكُوبَةِ: (قَاعِدَةُ الأَسْبَابِ).

فَالنَّظَرُ إِلَى أَسْبَابِ القُوَّةِ وَالضَّعْفِ يَتَجَاذَبُهُ طَرَفَانِ:

- طَرَفُ الأَسْبَابِ الحِسِّيَّةِ.

- وَطَرَفُ الأَسْبَابِ المَعْنَوِيَّةِ.

وَالمُوَفَّقُ -حَالَ الاسْتِضْعَافِ- مَنْ يُرَاعِي أَحْكَامَ أَسْبَابِ القُوَّةِ المَعْنَوِيَّةِ، وَيَسْعَى فِي تَحْقِيقِهَا أَوْ مُقَارَبَتِهَا.

وَجُمَّاعُهَا: (الإِيمَانُ بِالرُّبُوبِيَّةِ الكَامِلَةِ) الإِيمَانُ الَّذِي يُثْمِرُ (المَعِيَّةَ الرَّبَانِيَّةَ) بِالتَّأْيِيدِ وَالحِفْظِ.

- بِهِ صَارَتِ النَّارُ بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ -عَلَيْهِ السَّلامُ-.

- وَبِهِ انْفَلَقَ البَحْرُ لِمُوسَى -عَلَيْهِ السَّلامُ- وَمَنْ مَعَهُ، وَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ العَظِيمِ.

- وَبِهِ نَجَّى اللَّهُ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَصَاحِبَهُ يَوْمَ الغَارِ.

فَالوَاجِبُ تَعْلِيمُ الأُمَّةِ حُقُوقَ (إِنَّ اللّٰهَ مَعَنَا).

وَمِنْ هَذَا التَّعْلِيمِ المُتَعَيِّن تَعْلِيمُهَا الحُقُوقَ العَمَلِيَّةَ، وَمِنْهَا:

١- التَّوْبَةُ وَالاسْتِغْفَارُ.

٢- اليَقِينُ وَالاسْتِبْشَارُ.

٣- كَثْرَةُ الأَذْكَارِ.

٤- الصَّبْرُ وَالاصْطِبَارُ.

٥- الدُّعَاءُ -خَاصَّةً- وَقْتَ الأَسْحَارِ.

٦- الصَّلاةُ آنَاءَ اللَّيلِ وَطَرَفَيْ النَّهَارِ.

٧- مَعْرِفَةُ وَاجِبِ الوَقْتِ وَتَعَاهُدُهُ بِالإِيثَارِ.

وَمِنْ نَوَاقِضِ التَّفْكِيرِ الإِيمَانِيِّ:

- التَّعَلُّقُ بِالأَسْبَابِ الحِسْيَّةِ وَتَغْلِيبُهَا عِنْدَ الحُكْمِ عَلَى الأَحْدَاثِ.

- نَقْدُ الأَخْبَارِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّحْلِيلِ السِّيَاسِيِّ الَّذِي يَخْضَعُ لِتَأْثِيرِ الإِعْلامِ، وَالثَّقَافَةِ الشَّخْصِيَّةِ لِلنَّاقِدِ.

- العَجَلَةُ فِي إِبْدَاءِ الرَّأْيِ دُوْنَ رَوِيَّةٍ وَلا تَثَبُّتٍ.

- الانْسِيَاقُ وَرَاءَ العَاطِفَةِ وَالانْصِيَاعُ لِلتَّضْخِيمِ الإِعْلامِيِّ عَلَى أَنَّهُ مُسَلَّمَاتٌ.

- عَدَمُ إِسْنَادِ الأُمُورِ إِلَى أَهْلِهَا أَوْ المُقَارِبِين لَهُمْ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ أَوْ الاخْتِصَاصِ.

- الانْشِغَالُ بِالتَّنْظِيرَاتِ بَعِيدَاتِ المَنَالِ دُوْنَ الوَاجِبَاتِ المُمْكِنَةِ.

التَّفْكِيرُ العَقِيمُ:

وَمِنَ الأَمْرَاضِ الخَطِيرَةِ الَّتِي تَتَسَلَّلُ إِلَى عَقْلِ صَاحِبِ هَذَا السُّلُوكِ: (التَّفْكِيرُ العَقِيمُ).

وَذَلِكَ أَنَّهُ أَعْتَادَ تَعَاطِي الأَحْدَاثَ بِالعَقْلِيَّةِ ذَاتِهَا الْمُضْطَرِبَةِ غَيْرِ الْمُتَزِنَةِ بِالرَّافِدِ الإِيمَانِيِّ؛ فَصَارَ مُدْمِنًا عَشْوَائِيَّةَ الأَفْكَارِ؛ يَسْكُنُ إِلَيْهَا، وَيَسْتَلِذُّ بِتَتَبُّعِهَا. وَفِي حَقِيقَتِهَا أَنَّهَا هِيَ المَرَضُ عَيْنُهُ يَفْتِكُ بِهِ وَيَحْرِمُهُ مِنَ الهِدَايَةِ إِلَى مَا فِيهِ صَلاحُهُ فِي الدَّارَيْنِ.

فَهَذَا النَّوْعُ مِنَ التَّفْكِيرِ (عَقِيمٌ) لا يُثْمِرُ عَمَلاً، وَلا يُنْتِجُ حَلاً. بَلْ هُوَ جُرْثُومَةُ مَتَاهَةٍ، وَدَوَّامَةُ ضَلالَةٍ، وَ(خَمْرَةُ الْمُسْتَضْعَفِينَ) مَنْ سَكَرَ بِهَا لَمْ يُفِقْ إِلا عَلَى سِيَاطِ الظَّالِمِينَ تَعْلُو كَرَامَتَهُ وَمُرُوءَتَهُ.

وَصَحْوَةُ الفِكْرَةِ مُقَدِّمَةُ الانْتِصَارِ، وَأَسَاسُهَا المَتِينُ يُسْتَمَدُّ مِنَ اللَّهِ – تَعَالَى– إِيمَانًا بِهِ وَتَوَكُّلاً عَلَيْهِ.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ .

النِّدَاءُ السَّادِسَ عَشَرَ

الأَزْمَةُ وَالمَخْرَجُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَهَذِهِ مُقَدِّمَاتٌ شَرْعِيَّةٌ تَجِبُ مُرَاعَاتُهَا عِنْدَ الأَزمَاتِ:

١ـ اسْتِنْبَاطُ الرَّاسِخِينَ لِمَآلَاتِ الأَزْمَةِ مِنْ مَبَادِي أَسْبَابِهَا لِمَعْرِفَتِهِمْ بَالشَّرْعِ دَلالَةً وَمَقْصَدًا، وَخِبْرَتِهِمْ بِالوَاقِعِ عَقْلاً وَتَجْرِبَةً.

٢ـ أَخْذُ الحِيطَةِ الوَاجِبَةِ عِنْدَ بَوَادِرِ الأَزْمَةِ؛ مِنَ العُلَمَاءِ تَصَدِّيًا وَتَحْذِيرًا، وَمِنَ الأُمَّةِ حَذَرًا وَوِقَايَةً.

٣- مُعَالَجَةُ الأَزْمَةِ عِنْدَ تَنَامِيهَا بِالحُلُولِ الوَاقِعِيَّةِ مَعَ مُرَاعَاةِ: الاضْطِرَارِ، وَالإِمْكَانِ، وَأَحْكَامِ التَّعَارُضِ وَالتَّزَاحُمِ بَيْنَ المَصَالِحِ وَالمَفَاسِدِ.

٤- الأَخْذُ بِأَسْبَابِ قَمْعِهَا عِنْدَ تَفَشِّيهَا؛ لأَنَّهَا فِي هَذَا الطَّوْرِ تَأْخُذُ طَابِعَ المُقَارِعِ وَالمُحَارِبِ، وَالقَمْعُ لا يَكُونُ إلا بِالقُوَّةِ وَمِنْ أَسْبَابِ قُوَّةِ الأُمَّةِ: (الاجْتِمَاعُ، وَالائْتِلافُ، وَالثَّبَاتُ، وَكَثْرَةُ الذِّكْرِ، وَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ، وَلُزُومُ الطَّاعَةِ، وَتَرْكُ الجِدَالِ فِي كُلِّ مَا يُوجِبُ النِّزَاعَ).

٥- العَمَلُ عَلَى تَقْلِيلِ شَرِّهَا وَفَسَادِهَا عِنْدَ أَوَائِلِ تَمَكُّنِهَا بِتَقْدِيمِ حِفْظِ الضَّرُورِيَاتِ عَلَى مَا دُونَهَا، وَهَكَذَا الأَهَمُّ فَالأَهَمُّ مِنَ الضَّرُورِيَاتِ نَفْسِهَا؛

لأَنَّهَا فِي هَذِهِ المَرْحَلَةِ تَبْلُغُ قِمَّةَ هَيَجَانِهَا وَطَيْشِهَا وَعُتُوِّهَا وَإِفْسَادِهَا.

٦- مُدارَاتُها عِنْدَ تَمكُّنِهَا وَغَلَبَتِهَا لِمَصْلَحَتَيْنِ:

الأُوْلَى: حِفْظُ مَا تَبَقَّى مِنْ بَيْضَةِ الأُمَّةِ.

الثَّانِيَة: طَلَبُ إِفَاقَةِ الأُمَّةِ المَنْكُوبَةِ بِتَقْلِيلِ ضُغُوطِهَا وَتَدَاعِيَاتِهَا.

٧- طَلَبُ الحُلُولِ لَهَا وَالسَّعْيِ فِي نَهْضَةِ الأُمَّةِ، وَذَلِكَ بِأَمْرَيْنِ:

الأَوَّل: بِنَاءِ الأُمَّةِ مِنْ جَدِيدٍ، وَذَلِكَ؛

بِالعِلْمِ المُشْتَمِلِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالمُتَابَعَةِ.

وَالتَّزْكِيَةِ مَأْخُوذاً مِنَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ السَّلَفِ.

الثَّانِي: طَلَبِ المَخَارِجِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الأَزْمَةِ مَعَ مُرَاعَاةِ: (التَّدَرُّجِ، وَالقُدْرَةِ، وَالحِكْمَةِ، وَالصَّبْرِ، وَسُنَنِ الاسْتِضْعَافِ وَنَحْوِهَا).

٨- الوُقُوفُ مَعَ الحِكْمَةِ مِنْ ابْتِلاءِ اللهِ عِبَادَهُ بِهَا رُجُوعاً إِلَى دِينِهِ، وَصَبْراً عَلَى قَضَائِهِ.

٩- عَلَى الدُّعَاةِ أَنْ يَحْذَرُوا عَدَدًا مِنَ السَّلْبِيَاتِ الَّتِي تُضَاعِفُ الأَزْمَةِ أَوْ تُدِيمُهَا، وَمِنْهَا:

أ- الانْشِغَالُ بِأَعْرَاضِ الأَزْمَةِ عَنْ أَدْوَائِهَا، وِبآثَارِهَا عَنْ أَسْبَابِهَا.

ب- اسْتِعْجَالُ الخُرُوجِ مِنَ الأَزْمَةِ بالطُّرُقِ المَوْهُومَةِ، وَالخَيَالِيَّةِ -أَحْيَانًا.

ت- التَّرْكِيزُ عَلَى شَائِعَاتِهَا بِتَتَبُّعِهَا وَنَشْرِهَا.

ث- التَّغَافُلُ عَنْ طَلَبِ المَخْرَجِ الشَّرْعِيِّ مِنْهَا عَجْزًا وَتَهَاوُنًا.

ج- الغَفْلَةُ عَنْ طَلَبِ المَخْرَجِ مِنْهَا جَهْلاً وَعِيًّا.

ح- طَلَبُ المَخْرَجِ مِنْ غَيْرِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِفَهْمِ السَّلَفِ، وَذَلِكَ بالمُغَالاةِ بالتَّحْلِيلاتِ الإِخْبَارِيَّةِ وَالتَّكَهُّنَاتِ السِّيَاسِيَةِ.

خ- ضَعْفُ التَّعَلُّقِ بِاللهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَالإِلْتِجَاءِ لَهُ -سُبْحَانَهُ- بالاسْتِغَاثَةِ وَالدُّعَاءِ.

د- إِشْرَاكُ حُظُوظِ النَّفْسِ فِي الحُلُولِ يَجْعَلُ المَخْرَجَ مَكْسَباً شَخْصِيَاً وَلَيْسَ مَطْلَبَاً لأُمَّةِ.

ذ- وَهُوَ أَحْمَقُ شَيْءٍ وَأَسْفَهُهُ: إِشْغَالُ الأُمَّةِ عَنْ ضَرُورَاتِهَا الشَّرْعِيَّةِ وَالوَاقِعِيَّةِ بِصِرَاعَاتٍ جَانِبِيَّةٍ وَهَامِشِيَّةٍ وَوَهْمِيَّةٍ يُجَيِّرُهَا المَفْتُونُ لِصَالِحِ أَهْوَائِهِ.

ر- الجَهْلُ بِمَرَاتِبِ المَطَالِبِ الشَّرْعِيَّةِ فِي نَفْسِهَا وَعِنْدَ تَزَاحُمِهَا مِمَّا يَنْتُجُ عَنْهُ التَّقْصِيرُ فِي وَاجِبِ الوَقْتِ.

ز- طَلَبُ الإِصْلاحِ بِلا مَشْرُوعٍ، أَوْ تَبَنِّي مَشْرُوعَاً بِلا قَضِيَّةٍ؛ فَالأَوَّلُ كَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ بِلا أَقْدَامٍ . وَالثَّانِي كَمَنْ يَمْشِي بِلا هَدَفٍ.

وَفِي الخِتَامِ: الإِصْلاحُ يَحْتَاجُ رِجَالاً يَسْتَجْلِبُونَ النَّصْرَ بِالصِّدْقِ وَالإِخْلاصِ مُسْتَيْقِنِينَ بِآيَاتِ اللهِ. وَيُتَرْجِمُونَهَا لِلأُمَّةِ تَفَاؤُلاً وَاسْتِبْشَارَاً. صَابِرِينَ وَمُصَابِرِينَ تُقَىً وَرِبَاطاً.

وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ.

النِّدَاءُ السَّابِعَ عَشَرَ

أُسُّ الأُسُسِ فِي حَلِّ الأَزَمَاتِ، لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ ! ! !

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللّهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ يُدْرِكُ أَنَّ الأُمَّةَ المَنْكُوبَةَ –اليَوْمَ– تَمُرُّ بِحَالَيْنِ:

الحَالِ الأُوْلَى: العَذَابِ الأَلِيمِ الَّذِي عَمَّ الأُمَّةَ فِي أَنْفُسِهَا، وَأَعْرَاضِهَا، وَأَمْوَالِهَا.

الحَالِ الثَّانِيَةِ: التَّيْهِ وَالضَّلالِ الَّذِي أَفْسَدَ عَلَيْهَا عِلْمَهَا بِأَسْبَابِ نَجَاتِهَا وَسَلامَتِهَا.

وَقَدْ بيْنَ اللّهُ –تعَالَى– أَنَّ هَاتيْنِ الحَالَيْنِ عُقُوبَتَانِ يُسَلِّطُهُمَا اللّهُ – تَعَالَى– عَلَى بَعْضِ عِبَادِهِ إِذَا انْعَدَمتْ عُقُولُهُمْ، وَصَارُوا مِنَ الَّذِيْنَ {لا يَعْقِلُونَ}.

قَالَ الحَقُّ –سُبْحَانَهُ–: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}[يُونِسُ: ١٠٠].

لَقَدْ دَلَّتْ الآيَةُ الكَرِيمَةُ عَلَى مَعْنَيين رُتِّبَا عَلَى عَدَمِ العَقْلِ:

المَعْنَى الأَوّل: "العَذَاب" قَالَهُ القُرْطُبِيُّ –رَحِمَهُ اللّهُ– (الجَامِعُ لأَحْكَامِ القُرْآنِ: ٨/٣٨٦)، وَالطَّبَرِيُّ –رَحِمَهُ اللّهُ– (جَامِعُ البَيَانِ: ١٥/٢١٤). وَفِيْهِ: "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا– قَوْلُهُ: {وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ}، قَالَ: السَّخَط".

المَعْنَى الثَّانِي: "الخَبَال، وَالضَّلال". كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ – رَحِمَهُ اللّهُ–: "{وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ} وَهُوَ الخَبَالُ، وَالضَّلالُ، {عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}" (تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ: ٤/ ٢٩٨).

وكِلا المَعْنيَيْنِ صَحِيحٌ كَمَا أَشَارَ لَهُ السِّعْدِيُّ ‒رَحِمَهُ اللّهُ‒ بِقَوْلِهِ: "{وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ} أَيْ: الشَّرَّ وَالضَّلالَ {عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}"(تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: ٣٧٤).

فَالأُمَّةُ المُسْتَضْعَفَةُ قَبْلَ أَنْ تُنْكَبَ فِي رِزْقِهَا وَأَمْنِهَا وَاسْتِقْرَارِهَا وَأَمَانِهَا قَدْ نُكِبَتْ فِي عَقْلِهَا وَوَعْيِهَا وَرُشْدِهَا وَهِدَايَتِهَا لِمَصَالِحِهَا.

وَقَدْ أَدَّى اجْتِمَاعُ ذَلِكَ إِلَى: اسْتِذْلالِهَا، وَقَهْرِهَا، وَاسْتِضْعَافِهَا، وَذَهَابِ هَيْبَتِهَا، وَانْكِسَارِ شَوْكَتِهَا، وَسَلْبِ خَيْرَاتِهَا، وَنَهْبِ مُدَّخَرَاتِهَا.

وَلا رَيْبَ أَنَّ العَاقِلَ مِنْ أَبْنَائِهَا، وَالْمُهْتَمَّ بِأَمْرِهَا، وَالسَّاعِيَ فِي إِصْلاحِ أَحْوَالِهَا أَوَّلُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ أُسِّ خَرَابِهَا، وَسَبَبِ نَكْبَتِهَا.

فَالعَاقِلُ يَبْدَأُ عَلاجَهُ مِنَ الأَسْبَابِ المُوجِبَةِ لِفَسَادِ حَالِهِ؛ بِمَعْرِفَتِهَا، وَمَعْرِفَةِ طُرُقِ اسْتِئْصَالِهَا أَوْ اصْلاحِهَا، وَمَعْرِفَةِ الدَّوَاءِ المُزِيلِ لَهَا وَلآثَارِهَا.

وَأَمَّا السَّفِيهُ فَيَغِيبُ عَنْ ذَلِكَ بِتَطَلُّعِهِ لِمُشَاهَدَةِ الوَقَائِعِ اليَوْمِيَّةِ، وَسَرْدِ أَخْبَارِهَا، وَالتَّفَجُّعِ بِآلامِهَا، تَائِهاً بَيْنَ مَفَاصِلِ أَحْدَاثِهَا الجُزْئِيَّةِ، وَغَافِلاً عَنْ أُصُولِهَا الكُلِّيَّةِ حَتَّى يُصْبِحَ هَمُّهُ تَتَبُّعَ القَنَوَاتِ الإِخْبَارِيَّةِ، وَالتَّحْلِيلاتِ السِّيَاسِيَةِ.

وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ جُلَّ تِلْكَ الأَخْبَارِ وَالتَّحْلِيْلاتِ هِيَ مُسْتَنْقَعَاتٌ لِلْكَذِبِ وَالجَهْلِ، وَأَرْبَابُهَا فِي الغَالِبِ يَسْتَغِلُّونَهَا فِي بِنَاءِ القَنَاعَاتِ الوَهْمِيَّةِ الَّتِي تُضَلِّلُ الأُمَّةَ.

قَدْ لَقِيَ الأَحْرَارُ مِنْهُ الَّذِي ** لَمْ يَلْقَ زَيْدُ النَّحْوِ مِنْ عَمْرِو

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَضْلِيلِ الأُمَّةِ التَّائِهَةِ:

أَنْ يَتَصَدَّرَ لِنَقْلِ أَخْبَارِهَا وَتَحْلِيلِ أَحْدَاثِهَا وَصِنَاعَةِ قَرَارَاتِهَا مَنْ هُوَ سَبَبٌ فِي نَكْبَتِهَا وَاسْتِضْعَافِهَا مِمَّنْ تَصَدَّرَ هَرَمَ التَّحْلِيلِ وَالقَرَارِ.

لَعَمْرُ أَبِيْكَ مَا نُسِبَ المُعَلَّى *** إِلَى كَرَمٍ وَفِي الدُّنْيَا كَرِيمُ

وَلَكِنَّ البِلادَ إِذَا اقْشَعَرَّتْ *** وَصَوَّحَ نَبْتُهَا رُعِيَ الهَشِيمُ

وَفِي الآيَةِ السَّابِقَةِ بَيَانٌ لِسَبَبِ العَذَابِ وَالضَّلالِ وَهُوَ سَلْبُ العُقُولِ مِنْ أَصْحَابِهَا، كَمَا قَالَ –تَعَالَى-: {وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}[يُونسُ: ١٠٠].

وَالمَقْصُودُ بِقَوْلِهِ: {لا يَعْقِلُونَ} أَيْ: حُجَجَ اللهِ وَأَدِلَّتَهُ"(تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ: ٤/ ٢٩٨).

وَقَالَ السّعْدِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ– {الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}-: "عَنِ اللهِ أَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيَهُ، وَلا يُلْقُوا بَالاً لِنَصَائِحِهِ وَمَوَاعِظِهِ".

(تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: ٣٧٤).

وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ حُجَجَ اللّهِ وَأَدِلَّتَهُ وَأَوَامِرَهُ وَنَوَاهِيهِ وَنَصَائِحَهُ وَمَوَاعِظَهُ هِيَ: كِتَابُهُ الكَرِيمُ، وَسُنَّةُ نَبِيِّهِ الأَمِينِ —عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ —.

فَكُلُّ مَنْ لَمْ يَعْقِلْ مَعَانِيَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَلَمْ يَفْهَمْ عَنِ اللّهِ مُرَادَهُ فِي كِتَابِهِ، وَلَمْ يَفْهَمْ عَنِ الرَّسُولِ —عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ— مُرَادَهُ مِنْ سُنَّتِهِ فَهُوَ مِنَ {الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}.

فَحَقِيقَةُ دِيْنِ الإِسْلامِ هُوَ (الفَهْمُ الصَّحِيحُ) عَنِ اللّهِ وَرَسُولِهِ، وَهُوَ الوَاجِبُ عَلَى كُلِّ العِبَادِ.

قَالَ الشَّافِعِيُّ —رَحِمَهُ اللّهُ تَعَالَى—: "آمَنْتُ بِاللّهِ وَبِمَا جَاءَ عَنِ اللّهِ؛ عَلَى مُرَادِ اللّهِ، وَآمَنْتُ بِرَسُوْلِ اللّهِ، وَبِمَا جَاءِ عَنْ رَسُوْلِ اللّهِ؛ عَلَى مُرَادِ رَسُوْلِ اللّهِ" (لمعة الاعتقاد، ص: ٧).

وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ –رَحِمَهُ اللهُ-:

"وَلَيْسَ لأَحَدٍ أَنْ يَحْمِلَ كَلامَ اللهِ وَرَسُولِهِ عَلَى وِفْقِ مَذْهَبِهِ، إِنْ لَمْ يَتَبَيَّنْ مِنْ كَلامِ اللهِ وَرَسُولِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى مُرَادِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِلا فَأَقْوَالُ العُلَمَاءِ تَابِعَةٌ لِقَوْلِ اللهِ –تَعَالَى– وَرَسُولِهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَيْسَ قَوْلُ اللهِ وَرَسُولِهِ تَابِعاً لأَقْوَالِهِمْ" (كِتَابُ الإِيمَانِ، ص: ٣٢).

وَمِنْهُ نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ قَنَاعَةٍ فِكْرِيَّةٍ أَوْ مُوْقِفٍ شَرْعِيٍّ أَوْ تَحْلِيلٍ خَبَرِيٍّ، أَوْ قَرَارٍ سِيَاسِيٍّ لا يُؤَسَّسُ عَلَى الفَهْمِ الصَّحِيحِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَصَاحِبُهُ مِنَ {الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ}.

وَكُلُّ مَنِ اقْتَنَعَ بِأَفْكَارِهِمْ، وَاعْتَقَدَ بِآرَائِهِمْ، وَصَدَّقَ تَخَرُّصَاتِهِمْ، وَأَطَاعَ أَوَامِرَهُمْ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ –تَعَالَى– عَنْهُمْ:

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ}[البَقَرَة: ١٧٠].

وَمَنْ لَمْ يَقْنَعْ (بِالقُرْآنِ العَظِيْمِ)، وَيَهْتَدِ بِنُورِهِ، وَيَكْتَفِ بِهِ عَمَّا سِوَاهُ. بَلْ يَتْرُكُهُ وَيَطْلُب إِصْلاحاً مِنْ غَيْرِهِ، وَهِدَايَةً لِمَصَالِحِهِ مِنْ سِوَاهُ تَكُونُ مُنَاسِبَةً لِهَوَاهُ أَوْ شَهَوَاتِهِ. فَلِسَانُ حَالِهِ يَقُوْلُ: {ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ} كَحَالِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَنْهُمْ: {وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}[يُوْنس: ١٥].

فَهُمْ طَلَبُوا قُرْآناً عَلَى مَقَاسَاتِ أَهْوَائِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ يُسَايرُهُمْ وَيُحَقِّقُ أَهْدَافَهُمْ وَيُلَبِّي رَغَبَاتِهِمْ.

فَالأَسَاسُ الصَّحِيحُ الَّذِي يُفْهَمُ بِهِ الوَاقِعُ، وَتُحَلَّلُ بِهِ الأَحْدَاثُ، وَتُصْنَعُ بِهِ القَرَرَاتُ، وَتُحَلُّ بِهِ الأَزَمَاتُ، وَتَصْلُحُ بِهِ المُجْتَمَعَاتُ هُوَ (الفَهْمُ الصَّحِيحُ) لِلْوَحْيِ: الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ.

وَهَذَا الفَهْمُ الصَّحِيحُ لِلإِسْلامِ تَقَومُ أُصُولُهُ عَلَى (سَبِيلِ الصَّحَابَةِ) الكِرَامِ، فَهَدْيُهُمْ وَسَمْتُهُمْ وَطَرِيقَتُهُمْ فِي فَهْمِ الدِّينِ هِيَ المِيزَانُ المُعْتَبَرُ الَّذِي تُوزَنُ بِهِ المَفَاهِيْمُ البَشَرِيَّةُ كَافَةً.

فَكُلُّ هِدَايَةٍ لا يَكُونُ (سَبِيلُ الصَّحَابَةِ) طَرِيقَهَا فَهِيَ ضَلالَةٌ وَانْحِرَافٌ وَعَدَاوَةٌ وَاخْتِلافٌ وَشَقَاوَةٌ وَاخْتِلالٌ، كَمَا قَالَ —تَعَالَى— : {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البَقَرَةُ: ١٣٧].

وَلِهَذَا قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ —رَحِمَهُ اللَّهُ— :

"فَمَنْ بَنَى الْكَلَامَ فِي الْعِلْمِ: الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْآثَارِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ السَّابِقِينَ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ".

(مَجْمُوعُ الفَتَاوَى: ١٠/٣٦٣).

فَالحَذَرَ الحَذَرَ مِنْ مُخَالَفَةِ سَبِيلِهِمْ أَوْ اتِّبَاعِ غَيْرِ طَرِيقِهِمْ {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}[النِّسَاءُ: ١١٥].

الْعِلْمُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ *** قَالَ الصَّحَابَةُ لَيْسَ خُلْفٌ فِيهِ

مَا الْعِلْمُ نَصْبُكَ لِلْخِلَافِ سَفَاهَةً *** بَيْنَ النُّصُوصِ وَبَيْنَ رَأْيِ سَفِيهِ

النِّدَاءُ الثَّامِنَ عَشَرَ

ضَوَابِطُ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالإِيمَانِ

فِي تَنْزِيلِ الأَحْكَامِ عَلَى الْوَقَائِعِ وَالأَعْيَانِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ وَالاهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَالَ اللّهُ –تَعَالَى-: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} [الإِسْرَاءُ :].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ –رَحِمَهُ اللهُ-:

"قَالَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ– يَقُولُ: لا تَقُلْ.

وَقالَ العَوْفِيُّ عَنْهُ: لا تَرْمِ أَحَدًا بِمَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الحنَفِيَّةِ: يَعْنِي شَهَادَةَ الزُّورِ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: لا تَقُلْ: رَأَيْتُ، وَلَمْ تَرَ، وَسَمِعْتُ، وَلَمْ تَسْمَعْ، وَعَلِمْتُ، وَلَمْ تَعْلَمْ؛ فَإِنَّ اللّهَ سَائِلُكَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

وَمَضْمُونُ مَا ذَكَرُوهُ: أَنَّ اللّهَ —تعَالَى– نَهَى عَنِ القَوْلِ بِلا عِلْمٍ. بَلْ بِالظَّنِّ الَّذِي هُوَ التَّوَهُّمُ وَالخيَالُ، كَمَا قَالَ —تَعَالَى–: {اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} [الحُجُرَات: ١٢].

وَفِي الحَدِيثِ: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ" (مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ). وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: "بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ: زَعَمُوا" (صَحِيحُ الجَامِعِ رقم: ٢٨٤٦)، وَفِي الحَدِيثِ الآخَرِ: "إِنَّ أَفْرَى الفِرَى أَنْ يُرِي عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا" (البُّخَارِيُّ). وَفِي الصَحِيحِ: "مَنْ تَحَلَّمَ حِلْمَاً كُلِّفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَيْسَ بِعَاقِدٍ" (صَحِيحُ الجَامِعِ رقم: ٦١٣٩)" (تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيمِ: ٥/٧٥).

اعْلَمْ —عَبْدَ اللّهِ—،

أَنَّ هُنَاكَ أُسُساً عَامَّةً لِسَلامَةِ الرَّأْيِ وَصِحَّتِهِ عِنْدَ الحُكْمِ عَلَى الوَقَائِعِ وَالأَعْيَانِ أَوْ الإِخْبَارِ عَنْهَا.

وَهَذِهِ الأُسُسُ تَبْدَأُ أَوَّلاً بِـ(التَّصَوُّرِ الصَّحِيْحِ) فَإِنَّ الحُكْمَ عَلَى الشَّيْءِ فَرْعٌ عَنْ تَصَوُّرِهِ فَلا يَصِحُّ الحُكْمُ حَتَّى تَتِمَّ الإِحَاطَةُ الْكَامِلَةُ بِالْوَاقِعِ — وَلَوْ بِغَلَبَةِ ظَنٍّ مُعْتَبَرَةٍ—.

فَكُلُّ نَقْصٍ فِي التَّصَوُّرِ وَالعِلْمِ بِالْوَقَائِعِ وَالأَعْيَانِ وَأَحْوَالِهِمَا يُقَابِلُهُ نَقْصٌ فِي الرَّأْيِ وَالحُكْمِ.

قَالَ —تَعَالَى-: {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ}[يُونسُ: ٣٩].

فَفِي هَذِهِ الآيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الحُكْمَ عَلَى الشَّيْءِ قَبْلَ العِلْمِ الكَامِلِ بِهِ نَقْصٌ وَتَحَكُّمٌ يُخَالِفُ قَوَاعِدَ التَّفْكِيرِ الصَّحِيْحِ.

وَهُنَا يَحْتَاجُ الْعَبْدُ مَبَادِئَ النَّظَرِ الصَّحِيْحِ عِنْدَ تَنْزِيلِ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ:

١ – مَعْرِفَةُ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ.

٢ – وَمَعْرِفَةُ ظَرْفِهِ مِنْ جِهَةِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

٣ – وَمَعْرِفَةُ أَسْبَابِ نُشُوئِهِ.

٤ – وَمَعْرِفَةُ ثِمَارِهِ وَآثَارِهِ.

٥ – وَمَعْرِفَةُ أَعْرَاضِهِ المُلازِمَةِ وَالمُنْفَكَّةِ.

فَهَذِهِ المَبَادِئُ الخَمْسَةُ لا يَتِمُّ تَصَوُّرُ أَيِّ وَاقِعَةٍ بِشَكْلٍ كَامِلٍ حَتَّى يَكُونَ عِنْدَ النَّاظِرِ فِيْهَا إِلمَامٌ بِهَا.

وَمِنَ الْعُقَدِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا بَعْضُ الدُّعَاةِ –فِي جَانِبَيْ تَهْوِيْلِ الأُمُورِ أَوْ تَهْوِيْنِهَا– نَقصُ التَّصَوُّرِ الَّذِي يُوَلِّدُ الأَحْكَامَ الجَائِرَةَ عَلَى الأَشْيَاءِ، وَالأَخْبَارَ الكَاذِبَةَ عَنْهَا.

فَيَنْشَأُ الحُكْمُ بَعِيْداً عَنِ المَعْرِفَةِ التَّامَةِ الصَّحِيْحَةِ؛ لِخَلَلٍ فِي إِدْرَاكِ حَقِيْقَةِ الشَّيْءِ فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي زَمَانِهِ وَمَكَانِهِ أَوْ فِي سَبَبِ نُشُوئِهِ أَوْ فِي ثِمَارِهِ وَآثَارِهِ أَوْ فِي مَعْرِفَةِ أَعْرَاضِهِ.

فَكُلُّ حَلْقَةٍ مَفْقُودَةٍ مِنْ حَلْقَاتِ التَّصَوُّرِ الوَاقِعِي لِلأَشْخَاصِ أَوْ المَسَائِلِ أَوْ الأَحْدَاثِ يَذْهَبُ مَعَهَا جُزْءٌ مِنَ الحَقِيقَةِ يَفُوتُ —بِحَسَبِهِ— العَدْلُ فِي الحُكْمِ وَالصِّدْقِ فِي الخَبَرِ، وَمِنْ هَذَا الخَلَلِ تَنْشَأُ الفِتَنُ.

وَالسُّلَّمُ المَعْرِفِيُّ المُوصِلُ إِلَى إِحْرَازِ هَذِهِ المَبَادِئِ الخَمْسَةِ كَامِلَةً مُكَوَّنٌ مِنْ عَشْرِ دَرَجَاتٍ، هِيَ:

الدَّرَجَةُ الأُوْلَى: التَّجَرُّدُ مِنَ التَّقْلِيدِ بِاسْتِعْمَالِ النَّظَرِ الصَّحِيحِ؛ لأَنَّ التَّقْلِيدَ يَحُولُ دُوْنَ اسْتِيفَاءِ النَّظَرِ حَقَّهُ فِي الحُكْمِ عَلَى الأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَفْكِيرٌ بِعُقُولِ الآخَرِيْنَ وَلا نَدْرِي أَصَابُوا أَمْ أَخْطَؤُوا ثُمَّ هُوَ رَأْيٌ بِمَعْزِلٍ عَنِ الدَّلائِلِ المُوصِلَةِ لِلأَحْكَامِ، فَلَيْسَ التَّقْلِيدُ طَرِيْقاً إِلا حَالَ الضَّرُورَةِ.

الدَّرجَةُ الثَّانِيَةُ: تَجْدِيدُ النَّظَرِ فِي كُلِّ حَادِثَةٍ دُوْنَ الحُكْمِ بِالقَنَاعَاتِ المُسْبَقَةِ، وَالأَحْكَامِ المَاضِيَةِ؛ لأَنَّ طَرْدَ الحكْمِ فِي الأَعْيَانِ وَالمَسَائِلِ الحَادِثَةِ مَعَ تَغَايُرِ الأَحْوَالِ وَالأَزْمِنَةِ وَالأَمْكِنَةِ جَهْلٌ بِمَنَاطَاتِ الأَحْكَامِ وَعِلَلِهَا. بَلْ وَأَحْكَامِهَا وَحِكَمِهَا.

الدَّرَجَةُ الثَّالِثَةُ: التَّجَرُّدُ مِنَ النَّفْعِيَّةِ عِنْدَ الحُكْمِ عَلَى الأَشْيَاءِ؛ لأَنَّ الَّذِي يَنْظُرُ إلَى الشَّيْءِ طَالِبَاً الحُكْمَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ عَلَى قَاعِدَةِ المَصَالِحِ الخَاصَّةِ يَنْشَأُ حُكْمُهُ بَعِيْدَاً عَنْ مَصَالِحِ المَنْظُورِ فِي حُكْمِهِ وَآثَارِهِ.

وَهَذَا مَسْلَكُ المُنَافِقِيْنَ {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ} [النُّورُ: ٤٨ – ٤٩].

الدَّرَجَةُ الرَّابِعَةُ: عَدَمُ الاغْتِرَارِ بِالظَّوَاهِرِ خَشْيَةَ أَنْ تَكُونَ سِتَارَاً لِدَسَائِسَ خَفِيةٍ يَتَسَلَّلُ مِنْ خِلالِهَا المُفْسِدُونَ إِلَى أَغْرَاضِهِمْ الفَاسِدَةِ.

فَالوَاجِبُ طَلَبُ التَّأَمُّلِ وَالتَّمَعُّنِ عِنْدَ النَّظَرِ فِي الحُكْمِ عَلَى الأَشْيَاءِ حَتَّى يُدْرِكَ حَقِيْقَتَهَا، وَيَعْرِفَ مَا وَرَاءَ الأَكَمَةِ.

الدَّرَجَةُ الخَامِسَةُ: تَحْكِيمُ المآلاتِ عِنْدَ البَتِّ بالرَّأْيِ ، فَالحَكِيمُ مَنْ يَمُدُّ أُفُقَ نَظَرِهِ مِنَ البِدَايَاتِ إِلَى النِّهَايَاتِ، وَيُقَلِّبُ نَظَرَهُ بَيْنَ الأَسْبَابِ وَالغَايَاتِ، وَيَعْرِفُ البَوَاعِثَ وَالآثَارَ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يُخْرِجُ حُكْمَهُ مُسْتَوْفِيًا كُلَّ مَرَاتِبِ النَّتَائِجِ وَالمُقَدِّمَاتِ فَيَعْرِفُ مَا تُفْضِي إِلَيْهِ مِنَ العَوَاقِبِ وَالنِّهَايَاتِ.

الدَّرَجَةُ السَّادِسَةُ: العِبْرَةُ بِالمَعَانِي لا بِالعِبَارَاتِ، وَبِالحَقَائِقِ لا بِالادِّعَاءَاتِ.

وَهُنَا عُقْدَتَانِ عِنْدَ النَّاظِرِيْنَ فِي طَلَبِ الحُكْمِ عَلَى الأَشْيَاءِ:

العُقْدَةُ الأُوْلَى: أَسْرُ الأَلْفَاظِ وَالمُصْطَلَحَاتِ، فَيَحْكُمُ عَلَى الشَّيْءِ بِمُجَرَّدِ لَفْظٍ أَوْ عِبَارَةٍ دُوْنَ التَّأَمُّلِ فِي المَعْنَى وَالدَّلالَةِ، وَهَذِهِ سِمَةُ أَنْصَافِ المُتَعَلِّمِيْنَ وَالجَهَلَةِ مِنَ المُقَلِّدِيْنَ.

العُقْدَةُ الثَّانِيَةُ: خِفَّةُ الرَّأْيِ، فَيَحْكُمُ عَلَى الشَّيْءِ اغْتِرَارًا بِالدَّعْوَى دُوْنَ تَمْحِيْصٍ وَتَنْقِيْبٍ عَنْ دَلائِلِ هَذَا الادِّعَاءِ.

الدَّرَجَةُ السَّابِعَةُ: طَلَبُ مَعْرِفَةِ حُكْمِ المُمَاثِلِ لِمَعْرِفَةِ حُكْمِ مَثِيْلِهِ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الاعْتِبَارِ وَالقِيَاسِ الصَّحِيحِ؛ فَالشَّرْعُ يَجْمَعُ بَيْنَ المُتَمَاثِلاتِ {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ}[آلُ عِمْرَانَ: ١٣].

الدَّرَجَةُ الثَّامِنَةُ: تَرْكُ كُلِّ مَا لا يَثْبُتُ مِنْ الاحْتِمَالاتِ وَالتَّخَوُّفَاتِ وَالتَّحَرُّزَاتِ؛ فَالأُوْلَى جَهْلٌ، وَالثَّانِيَةُ جُبْنٌ، وَالثَّالِثَةُ سَفَهٌ وَحُمْقٌ.

فَالَّذِي يَبْنِي رَأْيَهُ عَلَى احْتِمَالٍ غَيْرِ مُعْتَبَرٍ يَكُونُ جَاهِلاً؛ لأَنَّ الحُكْمَ بِنَاءً عَلَى احْتِمَالٍ غَيْرِ ثَابِتٍ وَلا مُعْتَبَرٍ هُوَ حُكْمٌ بِالظَّنِّ وَالتَّخْمِيْنِ وَهُوَ حَقِيْقَةُ الجَهْلِ وَعَدَمُ العِلْمِ.

وَالَّذِي يَبْنِي رَأْيَهُ عَلَى تَخَوُّفٍ سَبَبُهُ غَيْرُ وَاقِعٍ وَلا مُتَوَقَّعٍ بِطَرِيقٍ مُعْتَبَرٍ يَكُونُ جَبَانًا؛ لأَنَّهُ يُحْجِمُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ يُوجِبُ الإِحْجَامَ سِوَى خَوْفِهِ المَوْهُومِ: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}[آلُ عِمْرَانَ: ١٧٥].

وَالَّذِي يَبْنِي رَأْيَهُ عَلَى تَحَرُّزَاتٍ مُتَكَلَّفَةٍ كَمَنْ يَلْبَسُ مَلابِسَ الشِّتَاءِ وَقْتَ الصَّيْفِ خَوْفَاً مِنَ البَرْدِ يَكُونُ مَعْتُوهَاً؛ فَالتَّحَرُّزُ مِنَ العَدَمِ سَفَهٌ فِي الأَفْهَامِ، وَخَبَلٌ فِي العُقُولِ.

الدَّرَجَةُ التَّاسِعَةُ: مَعْرِفَةُ قَوْلِ أَهْلِ الاخْتِصَاصِ؛ لأَنَّهُمْ أَدْرَى بِحَقِيْقَةِ الشَّيْءِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى-: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ} [النِّسَاءُ: ٨٣].

قَالَ السَّعْدِيُّ –رَحِمَهُ اللهُ-:

"وَفِي هَذَا دَلِيْلٌ لِقَاعِدَةٍ أَدَبِيَّةٍ وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا حَصَلَ بَحْثٌ فِي أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ يَنْبَغِي أَنْ يُوَلَّى مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِذَلِكَ وَيُجْعَلَ إِلَى أَهْلِهِ، وَلا يُتَقَدَّمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمِ؛ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ وَأَحْرَى لِلسَّلامَةِ مِنَ الخَطَأِ".

(تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ، ص: ١٩٠).

الدَّرَجَةُ العَاشِرَةُ: طَلَبُ مُكَمِّلاتِ الرَّأْيِ السَّدِيدِ، وَهِيَ:

(الاسْتِفْهَامُ، وَالاسْتِخَارَةُ، وَالْمُشَاوَرَةُ).

فَالاسْتِفْهَامُ: هُوَ طَلَبُ الفَهْمِ بِرَفْعِ كُلِّ مَا يَجْهَلُهُ النَّاظِرُ فِي المَسْأَلَةِ، فَيَسْتَوْضِحُ مِمَّنْ تَتَعَلَّقُ بِهِ المَسْأَلَةُ مَا يَجْهَلُهُ مِنْ حَقِيْقَةِ الشَّيْءِ أَوْ ظَرْفِهِ أَوْ سَبَبِهِ أَوْ غَرَضِهِ أَوْ عَرَضِهِ؛ فَالْحُكْمُ بِلا فَهْمٍ تَامٍ مُجَازَفَةٌ فِي العَدْلِ وَالصِّدْقِ.

وَالاسْتِخَارَةُ: طَلَبُ الخِيَرَةِ مِنَ اللّهِ —تَعَالَى— الَّذِي بِيَدِهِ التَّوْفِيقُ لِكُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؛ فَمَنِ اسْتَعَانَ بِاللّهِ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَخْتَارَ لَهُ الأَصْلَحَ مِنْ أُمُورِهِ بِإِخْلاصٍ وَصِدْقٍ يَجْعَلُ اللّهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ رَشَدَاً.

وَالاسْتِشَارَةُ: هِيَ طَلَبُ المَعُونَةِ مِنْ إِخْوَانِهِ وَخِلَّانِهِ لِلظَّفَرِ بِالرَّأْيِ الصَّحِيْحِ، فَمَنِ اسْتَشَارَ الرِّجَالَ شَارَكَهُمْ فِي عُقُولِهِمْ، وَاللّهُ يَقُولُ: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[الشُّورَى: ٣٨].

فَالعَبْدُ المُوَفَّقُ هُوَ مَنْ يَرْزُقُهُ اللهُ –تَعَالَى– حِنْكَةَ الرَّأْيِ النَّابِعَةَ مِنْ جَوْدَةِ الفِكْرِ؛ فَإِنَّ الوُصُولَ إِلَى الرَّأْيِ الصَّوَابِ لا يَأْتِي عَلَى البَدِيْهَةِ فِي الغَالِبِ. بَلْ لا بُدَّ أَنْ يَمُرَّ بِمَرَاحِلَ عَمَلِيَّةٍ مِنَ التَّفْكِيرِ تَقُودُهُ إِلَى الرَّأْيِ الصَّحِيْحِ.

و{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً}[الكَهْفُ: ١٧].

النِّدَاءُ التَّاسِعَ عَشَرَ

وَقَفَاتُ الْعَاقِلِ فِي الْفِتَنِ وَالأَزَمَاتِ، عِبَرٌ وَعِظَاتٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى نَبِيِّنَا الأَمِيْنِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَهَذِهِ وَصَايَا قَنَصَهَا خَاطِرِي الكَلِيْلُ مِنْ فَلاةِ النَّظَرِ العَلِيْلِ تَحْذِيْراً مِنْ الْفِتَنِ الْمُدْلَهِمَّاتِ، وَالنَّوَازِلِ الْمُظْلِمَاتِ.

فَعَنْ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ –رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ– قَالَ: أَيْمُ اللّهِ، لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ –صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ:

"إِنَّ السَّعِيْدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيْدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، إِنَّ السَّعِيْدَ لَمَنْ جُنِّبَ الفِتَنَ، وَلَمَنْ ابْتُلِيَ فَصَبَرَ فَوَاهاً".

(رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ).

وَأَسْعَدُ النَّاسِ أَعْقَلُهُمْ، وَهُمَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ؛ لأَنَّهُمْ كَمَّلُوا عُقُولَهُمْ بِنُورِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ –رَحِمَهُ اللهُ-:

"وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالحَدِيثِ فَمَا يُعْلَمُ أَحَدٌ مِنْ عُلَمَائِهِمْ وَلَا صَالِحِ عَامَّتِهِمْ رَجَعَ قَطُّ عَنْ قَوْلِهِ وَاعْتِقَادِهِ.

بَلْ هُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ صَبْرًا عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ اُمْتُحِنُوا بِأَنْوَاعِ الْمِحَنِ وَفُتِنُوا بِأَنْوَاعِ الْفِتَنِ.

وَهَذِهِ حَالُ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ كَأَهْلِ الْأُخْدُودِ وَنَحْوِهِمْ، وَكَسَلَفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْأَئِمَّةِ".

(مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى: ٤/٥٠).

لِذَلِكَ كَتَبْتُ هَذِهِ الْوَقَفَاتِ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ مُتَّبِعاً مَعَانِي نُصُوصِ الْوَحْيِ –كِتَابَاً وَسُنَّةً– وَمُقْتَفِيَاً آثَارَ السَّلَفِ الْكِرَامِ.

وَسَمَّيْتُهَا:

"وَقَفَاتُ الْعَاقِلِ فِي الْفِتَنِ وَالأَزَمَاتِ، عِبَرٌ وَعِظَاتٌ".

فَمَا كَانَ فِيْهَا مِنْ حَقٍّ وَصَوَابٍ فَمِنَ اللّهِ —وَحْدَهُ—، وَمَا كَانَ فِيْهَا مِنْ خَلَلٍ وَزَلَلٍ فَمِنِّي وَمِنَ الشَّيْطَانِ.

اللَّهُمَّ تَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيْمُ الحَكِيْمُ، وَاجْعَلْهَا نَافِعَةً لِعِبَادِكَ الْمُؤْمِنِيْنَ، وَمُصْلِحَةً لأَحْوَالِنَا فِي الدَّارَيْن.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيْمِ

[١] زَوَالُ الْفِتَنِ وَآثَارِهَا لا يَكُوْنُ إِلا بِإِقَامَةِ التَّوْحِيْدِ؛ بِأَنْ يَكُوْنَ الدِّيْنُ كُلُّهُ للّهِ، قَالَ –تَعَالَى–: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ}[الأَنْفَالُ: ٣٩].

[٢] صِحَّةُ المُعَالَجَةِ تَحْتَاجُ تَمْيِيزًا بَيْنَ أَعْرَاضِ المَرَضِ، وَأَسْبَابِهِ؛ فَكَثِيْرٌ مِنَ الأَمْرَاضِ تَظْهَرُ أَعْرَاضُهَا، وَتَخْتَفِي أَسْبَابُهَا؛ فَيُفْضِي الاشْتِبَاهُ إِلَى زِيَادَةِ المَرَضِ أَوْ دَوَامِهِ.

[٣] الْفَيْصَلُ بَيْنَ نَظَرِ الْعَاقِلِ، وَنَظَرِ السَّفِيْهِ؛ أَنَّ الْعَاقِلَ تَفْكِيْرُهُ لِمَاذَا أَفْعَلُ؟ وَالسَّفِيْهَ تَفْكِيْرُهُ مَاذَا أَفْعَلُ؟ فَتَفْكِيْرُ الأَوَّلِ فِي الْغَايَةِ؛ لأَنَّهُ حُرٌّ. وَالثَّانِي فِي الْفِعْلِ؛ لأَنَّهُ عَبْدٌ.

[٤] الْفِتْنَةُ آفَةُ الْعُقُولِ تُخَامِرُ الأَلْبَابَ فَتُفْسِدُهَا، وَتُعَارِضُ الأَحْلامَ فَتُحَيِّرُهَا. فَتَذَرُ السَّفِيهَ سَكْرَانَاً، وَتَجْعَلُ الْحَلِيْمَ حَيْرَانَاً.

[٥] الآرَاءُ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ، كَحُمَّى الْبَدَنِ؛ فَأَبْرِدُوهَا بِمَاءِ (الْوَحْيِ)، (وَالسُّنَنِ).

[٦] مَرْكَبُ الْفِتَنِ؛ بَحْرُهُ دِمَاءُ الأَبْرِيَاءِ، وَرُبَّانُهُ الصِّغَارُ وَالسُّفَهَاءُ؛ لَيْلُهُ بَهِيمٌ، وَنَهَارُهُ جَحِيْمٌ، وَمَرْسَاهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ عَلَى شَفِيْرِ جَهَنَّمَ.

[٧] صِرَاعُ الْعَاطِفَةِ وَالْعَقْلِ زَمَنَ الْفِتَنِ يَحْسِمُهُ الشَّرْعُ؛ فَمَا أَعْظَمَهَا مِنْ قُلُوبٍ لِلْعُقَلاءِ تَرْدِمُ بِحُدُودِ الشَّرِيْعَةِ فُوَّهَةَ الْعَاطِفَةِ مِنْ بُرْكَانِ الْغَيْظِ.

[٨] سُلُوكُ نَاقِصِ العَقْلِ: كَالطِّفْلِ يُكْثِرُ الضَّجِيْجَ، وَالصُّرَاخَ. وَتُرْضِيْهِ مَلْهَاةُ الصِّبْيَانِ.

وَالسُّلُوكُ المُتَزِنُ: ثَمَرَةُ التَّفْكِيْرِ المُعْتَبَرِ؛ لأَنَّ أُصُولَهُ تُبْنَى عَلَى نُبْلِ الغَايَةِ، وَصِحَّةِ الوَسِيْلَةِ.

[٩] الغَفْلَةُ ذُهُوْلُ الْقَلْبِ عَنْ شَيْءٍ مَعْلُوْمٍ تُوْجِبُ عَدَمَ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ مِنْ فِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ؛ فَإِنْ تَقَصَّدَ ذَلِكَ لِمَصْلَحَةٍ رَاجِحَةٍ فَهُوَ تَغَافُلٌ مَحْمُودٌ، وَإِلا فَهُوَ بَلادَةٌ بَهِيْمِيَّةٌ وَخَوَرُ نِيَّةٍ.

[١٠] المَتَاهَةُ أَنْ تَكُوْنَ فِي وَسَطِ الطَّرِيْقِ، ثُمَّ لا تَدْرِي أَيْنَ الْمَخْرَجُ فَفِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ عَلَيْكَ بِدُعَاءِ ذِيْ النُّوْنِ: لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّيْ كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِيْنَ.

[١١] ارْضَاءُ النَّاسِ عَقَبَةٌ كَؤُودٌ فِي طَرِيْقِ الْجَنَّةِ قَلَّ مَنْ يَتجَاوَزُهَا كَالأَعْرَافِ الْفَاسِدَةِ الَّتِي هِيَ سُلْطَةٌ قَسْرِيَّةٌ تَسُوقُ سُفَهَاءَ الأَبْنَاءِ بِأَهْوَاءِ الآبَاءِ فِي مَرْكَبِ حَمِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ.

[١٢] الْفِتْنَةُ قَدْ تَنْشَأُ مِنْ عَجَلَةِ الْقَرَارِ، وَهَذِهِ سِمَةُ أَكْثَرِ الْفِتَنِ المَكْشُوفَةِ لَكِنَّ أَغْمَضَهَا مَا يَتَأَخَّرُ فِيْهَا الْقَرَارُ الْحَاسِمُ؛ لِبُرُودَةِ التَّفْكِيْرِ فَتُوَاكَبُ الأَحْدَاثُ الْمُتَسَارِعَةُ بِمَشْيِ السُّلَحْفَاةِ.

[١٣] نَفَقُ الْفِتْنَةِ مُظْلِمٌ؛ فَإِنْ دَخَلْتَهُ بِشَمْعَةِ الرَّأْيِ فَسَتَنْطَفِئُ مَعَ أَوَّلِ أَعَاصِيْرِهِ، وَإِنْ أُدْخِلْتَهُ قَدَرَاً فَاسْتَصْحِبْ شَمْسَ النُّبُوَّةِ فَسَتَجِدْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ رَحْمَةً تُلَطِّفُ شِدَّتَهُ، وَرَشَدَاً لِلْخُرُوجِ مِنْهُ.

[١٤] لِلْعَاقِلِ نَظَرَانِ عِنْدَ مُعَالَجَةِ الْفِتْنَةِ: نَظَرٌ إِلَى السَّلْبِيَّاتِ الَّتِي تَتَحَوَّلُ إِلَى هُمُومٍ تُقَنِّطُهُ مِنَ النَّجَاةِ، وَنَظَرٌ إِلَى الإِيْجَابِيَاتِ يُحَوِّلُهَا تَفَاؤُلاً إِلَى سُلَّمٍ لِلْخُرُوجِ مِنْهَا.

[١٥] الْعَبْدُ زَمَنَ الْفِتْنَةِ يَحْتَاجُ أَمْرَيْنِ:

عِلْمَاً يُبَصِّرُهُ، وَعَمَلاً يُخَلِّصُهُ.

أَمَّا الْعِلْمُ فَمَنَاطُ حُصُوْلِهِ: الشَّرْعُ الصَّحِيْحُ، وَالْعَقْلُ الرَّجِيْحُ.

وَأَمَّا الْعَمَلُ فَمَنَاطُهُ: إِعَانَةُ اللهِ، وَجِمَاعُ ذَلِكَ التَّوْفِيقُ.

[١٦] لِكُلِّ فِتْنَةٍ قِنَاعٌ، فَالجَاهِلُ يَنْظُرُ إِلَى مَا ظَهَرَ وَعَلا. وَالْعَاقِلُ يَنْظُرُ إِلَى البَاطِنِ وَالْمُنْتَهَى. فَمَادَةُ الجَاهِلِ فِي نَظَرِهِ: (الْهَوَى).

وَمَادَةُ الْعَاقِلِ (الْوَحْيُ وَالْهُدَى).

[١٧] سَيْلُ الْفِتَنِ يَجْرِفُ مَا لا أَصْلَ لَهُ ثَابِتٌ، ثُمَّ يَنْتَهِي بِهِ حِيْنَ تَخْمِدُ فَوْرَتُهُ رُكَاماً مِنْ حُطَامٍ لا يُنْتَفَعُ مِنْهُ.

[١٨] حَقِيْقَةُ الْفِتْنَةِ السَّبَئِيَّةِ لا تَقُوْمُ عَلَى ذَكَاءِ مُصَدِّرِيْهَا، وَلَكِنَّهَا تَسْتَثْمِرُ بَلاهَةَ كَثِيْرٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَجَهْلَهَمْ فَتُمَرِّرُ أَفْكَارَهَا. وَتُسَخِّرُ ضَعْفَ إِيْمَانِهِمْ وَوَلائِهِمْ لِتَنْفِيْذِهَا.

[١٩] الْفِتْنَةُ اشْتِبَاهٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالبَاطِلِ بِظُلْمَةٍ تَحْجُبُ الرُّؤْيَةَ؛ فَالحَكِيْمُ الَّذِي يَحْفَظُ الْخُطَى الْقَدِيْمَةَ، فَيَخْطُو مِثْلَهَا مُتَوَكِّلاً عَلَى اللهِ؛ فَإِنْ وَسَّعَ خُطْوَتَهُ أَوْ قَصَّرَهَا فَقَدْ يَهْلَكُ.

[٢٠] الْفِتْنَةُ سَبُعٌ صَائِلٌ؛ فَرِيْسَتُهُ الثَّرْثَارُ، وَالسَّفِيْهُ: الأَوَّلُ لِكَثْرَةِ كَلامِهِ. وَالثَّانِي لاضْطِرَابِ أَفْعَالِهِ.

[٢١] حَقِيْقَةُ المُشَاوَرَةِ عِنْدَ الفِتَنِ حَسْمٌ لِلنِّزَاعِ بِمُنَاقَلَةِ الرَّأْيِ بَيْنَ الْعُقُولِ كَمُنْخُلِ الدَّقِيْقِ يُخْرِجُ الصَّافِي دُوْنَ النُّخَالَةِ.

[٢٢] الْخَسَارَةُ فِي الْفِتَنِ تَكُوْنُ فِي رَأْسِ المَالِ؛ فَلِهَذَا يُفْجَعُ بِهَا النَّاسُ، لأَنَّ خُسْرَانَ الأَرْبَاحِ لا يُوْجِبُ الإِفْلاسَ.

[٢٣] مِنَ الْفِتَنِ أَقْدَارٌ كَوْنِيَةٌ تَنْصَبُّ عَلَى مَحلِ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ؛ فَتَجْعَلُ مِنْ عَزَائِمِهَا مُسْتَكْرَهَاتٍ، وَمِنْ رُخَصِهَا مُفْتَرَاتٍ.

[٢٤] الْخَبَرُ فِي الْفِتْنَةِ مُلَوَّثٌ بِتَهْوِيْلٍ فَلا تَمْضَغْهُ بِلِسَانِكَ حَتَّى تَغْسِلَهُ بِـ(فَتَبَيَّنُوا).

[٢٥] احْذَرْ نَقْلَ الأَخْبَارِ وَتَصْدِيْقَهَا زَمَنَ الْفِتَنِ فَفِي ضَبَابِيَّةِ الْفِتْنَةِ تُلاكُ أَعْرَاضُ أَقْوَامٍ لا نَاقَةَ لَهُمْ فِيْهَا وَلا جَمَلَ.

[٢٦] إِنَّ الْفِتْنَةَ شَجَرَةٌ خَبِيْثَةٌ؛ بَذْرَتُهَا آفَةٌ فِي الْقُلُوبِ مِنْ عِلَلِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَيَمُدُّهَا مَاءُ الْهَوَى وَالشَّيْطَانِ؛ فَتُثْمِرُ بَيْنَ الْعِبَادِ الْحِقْدَ، وَالْحَسَدَ، وَالبَغْضَاءَ، وَالعَدَاءَ.

[٢٧] قَلَمُ العِلْمِ فِي النَّازِلَةِ كَالشَّمْسِ تُبَدِّدُ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ إلا أَنَّ الأَعْمَى لا يُبْصِرُهَا.

[٢٨] إِنَّ كَلِمَةَ الحَقِّ فِي مَوْضِعِهَا تَكُونُ وَضِيْئَةً وَلَهَا وَقْعٌ عَلَى القُلُوبِ زَمَنَ الفِتَنِ كَوَقْعِ الوَابِلِ عَلَى النَّارِ يُطْفِئُ لَهَبَهَا وَيُخْمِدُ نَارَهَا؛ فَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةَ حَقٍّ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا -جَهْلاً-. أَوْ كَلِمَةَ حَقٍّ أُرِيْدَ بِهَا مَآرِبَ -ظُلْمَاً-؛ فَإِنَّهَا تَصِيْرُ وَقُوداً لِلْفِتْنَةِ تُضْرِمُ نَارَهَا، وَتَزِيْدُ لَهَبَهَا.

[٢٩] الْفِتَنُ مَزَلَّةُ قَدَمٍ، وَمُسْتَشْرِفُهَا عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ عَالٍ فِي لَيْلَةٍ مظْلِمَةٍ فَرُبَّمَا وَضعَ رِجْلَهُ عَلَى طَرَفِهِ فكَانَ عَلَى شَفَا هَلَكَةٍ، وَرُبَّمَا وَضعَهَا فِي الْهَوَاءِ فَيَخِرُّ إِلَى حَيْثُ مُنْتَهَاهُ.

[٣٠] الْمَفْتُونُ بَلِيْدُ الإِحْسَاسِ؛ لأَنَّ الأَلَمَ عَلَى قَدْرِ الصَّفْعَةِ إِلا أَنْ يَكُونَ الْمَصْفُوعُ فِي غَيْبَةِ السُّكْرِ، فَلا يَحُسُّ بِوَاقِعِهِ؛ لأَنَّهُ مَعَ النَّاسِ بِبَدَنِهِ، وَمَعَ الْهَوَى بِقَلْبِهِ وَفِكْرِهِ وَرُوحِهِ وَحِسِّهِ.

[٣١] كُلُّ كَلِمَةٍ فِي الْفِتْنَةِ بِلا تَأْصِيْلٍ شَرْعِيٍّ تَصِيْرُ حُرُوفُهَا خَنَاجِرَ تُمَزِّقُ وَحْدَةَ الأُمَّةِ.

[٣٢] الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ مَقْصَدٌ شَرْعِيٌّ؛ لأَجْلِهِ بَعَثَ اللهُ الرُّسُلَ، وَطَرِيْقُهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيْمُ، فَمَنْ لَمْ تَحُثُّهُ الآيَاتُ الشَّرْعِيَّةُ عَلَى سُلُوكِهِ سَاقَتْهُ السِّيَاطُ الْقَدَرِيَّةُ إِلَيْهِ بِالْبَلاءِ وَالْفِتَنِ.

[٣٣] صِفَةُ المُؤْمِنِ زَمَنَ الْفِتْنَةِ أَنَّهُ (قَابِضٌ عَلَى دِيْنِهِ)؛ لأَنَّهُ يُحِبُّهُ بِقَلْبِهِ وَيَحْفَظُهُ بِعَمَلِهِ، (كَالقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ)؛ لأَنَّهُ يُضَحِّي فِي سَبِيلِ بَقَائِهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ وَيَصْبِرُ عَلَى ذَلِكَ.

[٣٤] فِي الْقَلْبِ صِرَاعٌ زَمَنِ الْفِتَنِ بَيْنَ نَوَازِعِ الْخَيْرِ وَنَوَازِعِ الشَّرِّ، وَالغَلَبَةُ لِصَاحِبِ الدَّارِ؛ فَتَفَقَّدْ مَنْ يَسْكُنُ قَلْبَكَ تَعْرِفِ النَّتِيْجَةَ.

[٣٥] سُلَّمُ الْخُرُوجِ مِنَ الْفِتْنَةِ ثَلاثُ دَرَجَاتٍ؛ التَّوْبَةُ النَّصُوحُ الَّتِي تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ. وَالصَّمْتُ عَنِ الْكَلامِ إِلا بِعِلْمٍ ثَابِتٍ تَأْصِيْلُهُ، وَمُحَرَّرٍ تَنْزِيْلُهُ. وَالصِّدْقُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالْحَالِ. فَالتَّوْبَةُ تُحَرِّرُ قُيُودَهُ، وَالعِلْمُ يَدُلُّهُ عَلَى الطَّرِيْقِ، وَيُنِيْرُ سَبِيْلَهُ. وَالصِّدْقُ يُدْلِجُهُ فِي مَسِيْرِهِ حَتَّى يَلْحَقَ بِرَكْبِ النَّاجِيْنَ.

[٣٦] اِتِّحَادُ الْمُصَابِ عِنْدَ أَفْرَادِ الأُمَّةِ زَمَنَ الْفِتْنَةِ دَلِيْلٌ عَلَى كَمَالِ حَيَاةِ الْمُجْتَمَعِ؛ فَإِنَّ العُضْوَ الْمَيِّتِ مِنَ البَدَنِ لا تَسْرِي إِلَيْهِ آلامُ أَعْضَائِهِ الأُخْرَى.

[٣٧] نَجَاحُ الدَّاعِيَةِ مُقْتَرِنٌ بِتَطَلُّعِهِ إِلَى مَا كُلِّفَ بِهِ مِمَّا هُوَ فِي وُسْعِهِ؛ لأَنَّهُ طَرِيْقُهُ إِلَى اللهِ بِخِلافِ الْعَامِلِ بِغَيْرِ مَا كُلِّفَ بِهِ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ طَرِيْقٍ، كَمَنْ يَعْبُدُ اللهَ بِغَيْرِ شَرْعٍ.

[٣٨] الدَّمُ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ مِدَادٌ لِكِتَابَةِ عِبْرَةٍ قَصَصِيَّةٍ لا يَقْرَؤُهُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ.

[٣٩] الإِعْجَابُ بِالرَّأْيِ آفَةُ الْعَقْلِ وَحِجَابٌ عَنِ الْهِدَايَةِ؛ لأَنَّ سَمَاءَ الْحَقِّ لا يُحَلِّقُ فِيْهَا إِلا طَائِرُ التَّسْلِيْمِ لِلشَّرْعِ.

[٤٠] مَرْكَبُ السَّفِيْهِ فِي بِحَارِ الْفِتَنِ شِرَاعُهُ الْعَوَاطِفُ الَّتِي تُسَيِّرُهَا رِيحُ قَنَوَاتِ التَّحْرِيْضِ، وَمَنَابِرُ التَّهْيِيجِ.

[٤١] الْفَقِيْهُ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ مَنْ يَحْفَظُ حَسَنَاتِهِ بِتَرْكِ فُضُولِ الرَّأْيِ.

[٤٢] الْفِتَنُ تُذْهِبُ مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالإِيْمَانِ أَعْظَمُ مِمَّا تُذْهِبُ مِنَ الأَبْدَانِ وَالْبُلْدَانِ؛ فَمَنْ لَمْ تُفْسِدِ الْفِتْنَةُ دُنْيَاهُ فَلا يَأْمَنَنَّ أَنْ تُفْسِدَ أُخْرَاهُ.

[٤٣] التَّعَالُمُ خَصْلَةٌ مِنْ مَهَانَةِ الْعَبْدِ؛ لأَنَّ التَّزَيُّدَ بِرِدَاءِ الْعِلْمِ وَالْفَتْوَى عُنْوَانُ وَقَاحَةِ النَّفْسِ وَقُبْحِهَا، فَمِنِ احْتِرَامِ النَّفْسِ مَعْرِفَةُ قَدْرِهَا.

[٤٤] لَحظَاتُ تَسَلُّطِ الظَّالِمِيْنَ تَمْحِيْصٌ لِلْمُؤْمِنِيْنَ بِتَخْلِيْصِ إِيْمَانِهِمْ مِنْ شَوَائِبِ الشَّكِ وَالرَّيْنِ.

[٤٥] لُغَةُ الْعَاطِفَةِ فِي زَمَنِ الْفِتَنِ تَخْدِيْرٌ لِلنَّفْسِ، وَلَيْسَتْ عِلاجاً لِلْوَاقِعِ؛ لأَنَّهَا بِقَدْرِ مَا تُنَفِّسُ عَنِ الْمَكْبُوتِ فِي الصَّدْرِ تُفْسِدُ الْمَلْمُوسَ فِي الْوَاقِعِ.

[٤٦] أَعْذَبُ مَا يَكُوْنُ الدُّعَاءُ أَصْدَقُ مَا يَكُونُ العَبْدُ؛ وَذَلِكَ عِنْدَ تَجَرُّدِهِ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ وَانْقِطَاعِ تَعَلُّقِهِ بِالخَلْقِ وَذَلِكَ عِنْدَ بُلُوغِهِ مُنْتَهَى ضَعْفِهِ.

[٤٧] الْمُؤْمِنُ يَمْلِكُ أَقْوَى سِلاحٍ وَأَكْثَرَهُ نِكَايَةً فِي الْعَدُوِّ، لَكِنَّهُ لا يُحْسِنُ اسْتِعْمَالَهُ.

ربَاه أنت المنادى به في كل نازلة * وأنت ملجأ من ضاقت به الحيل

[٤٨] الرُّجُوعُ إِلَى الْعُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ مِنْ أُصُولِ الإِسْلامِ. وَالْعُدُولُ عَنْهُ يُفْسِدُ الأَدْيَانَ، وَالْجِنَانَ، وَالْبُلْدَانَ.

[٤٩] الْمُنْتَصِرُ لِلْحَقِّ لا لِنَفْسِهِ: مَنْ لا يُفْضِي قَوْلُهُ إِلَى بَاطِلٍ يُقَرِّرُهُ.

[٥٠] وَاجِبُ الدَّاعِيَةِ الرَّبَّانِي فِي زَمَنِ الْفِتْنَةِ تَثْبِيتُ الْقُلُوبِ لا تَغْيِيرُ الْقَنَاعَاتِ.

[٥١] تَضْخِيمُ الرَّأْيِ بِالْعِبَارَةِ، وَالإِثَارَةِ، وَالإِطَالَةِ مِنْ إِفْرَازَاتِ الافْتِتَانِ.

[٥٢] السَّلامَةُ مِنَ الْفِتْنَة لَيْستْ فِي مَعْرِفَةِ الْحقِّ. بَلْ بِالْتِزَامِ حَدِّهِ الشَّرْعِيِّ بِوَضْعِهِ فِي مَحلِّهِ بَلا إِفْرَاطٍ وَلا تَفْرِيْطٍ.

[٥٣] بُرْكَانُ غَضَبِ الْمَفْتُونِ يُخْمِدُهُ انْصِرَامُ أَحْدَاثِ الْفِتْنَةِ وَإِدْبَارُهَا، فَمعَ مُضِيِّ الزَّمَانِ تَنْحَسِمُ صِرَاعَاتُهُ؛ فَلا تَنْشَغِلْ بِمُمَارَاتِهِ.

[٥٤] مِنَ الغَرِيْبِ فِي أَحْوَالِ الْفِتَنِ أَنَّ أَكْثَر مَنْ يَخُوضُونَ فِيْهَا يَنْصُرُونَ فِيْهَا قَوْلاً مِنْ جِهَةٍ، وَيُؤَيِّدُونَ ضِدَّهُ مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ. وَهِيَ مَرْحَلَةُ الصِّبْيَانِيَّةِ فِي الرَّأْيِ.

[٥٥] مِنْ تَمَامِ سَعَادَةِ العَبْدِ أَنْ يَكْتُبَ فِي قَنَوَاتِ التَّوَاصُلِ مَا يُرْضِي رَبَّهُ، وَيَنْفَعُ إِخْوَانَهُ؛ فَمَنْ زَادَ هَمُّهُ، وَتَوَاصَلَ غَمُّهُ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مِدَادَهُ فِي سَخَطِ رَبِّهِ، وَمَضَرَّةِ إِخْوَانِهِ، وَإِنْ لَمْ يَرَ ذَلِكَ؛ لأَنَّهُ مَفْتُونٌ.

[٥٦] الْكِتَابَةُ خَلْفَ الشَّاشَةِ بِصَلافَةٍ وَجَسَارَةٍ خَارِجَةٍ عَنْ أَدَبِ الْمُجَالَسَةِ مِنْ نَقْصِ الْمُرُوءَةِ، وَالرُّجُولَةِ، وَهِيَ مُسْتَنْقَعٌ لِلافْتِتَانِ.

[٥٧] مِنْ مُقَدِّمَاتِ الْفِتْنَةِ الْبَطَالَةُ؛ فَمَنْ نُزِعَ الْخَوْفُ مِنْ قَلْبِهِ، وَقَلَّ رَجَاؤُهُ لِرَبِّهِ انْعَدَمَ صِدْقُهُ، وَكَثُرَ لَهْوُ قَلْبِهِ، وَلَعِبُ جَوَارِحِهِ –مَغْرُوراً بِالأَمَانِي– حَتَّى يَفْجَعَهُ حَتْفُهُ بِمَصْرَعِهِ مَعَ أَهْلِ الْبَطَالَةِ.

[٥٨] الْفِتْنَةُ (آلَةُ) كَشْفٍ وَتَمْحِيصٍ، تَنْفُذُ إِلَى كَمَائِنِ الْقُلُوبِ فَتُهَيِّجُهَا لِتَنْبَعِثَ مِنْهَا مَكْنُونَاتُ الضَّمَائِرِ أَقْوَالاً وَأَعْمَالاً.

فَقَوْلُ الْعَبْدِ قَبْلَ الْفِتْنَةِ ادِّعَاءٌ، وَبَعْدَهَا أَمَارَةٌ عَلَى حَقِيْقَتِهِ؛

فَمَنْ نَقَضَ قَوْلَهُ أَوْ عَمَلَهُ –مُخْتَاراً– بَعْدَ الْفِتْنَةِ فَهُوَ مَفْتُونٌ وَمَغْبُونٌ.

وَمَنْ ثَبَتَ عَلَى حَالِهِ الأُوْلَى فَهُوَ صَادِقٌ مَأْمُونٌ.

[٥٩] الْحَيْرَةُ نَوْعَانِ: عَدَمُ مَعْرِفَةِ الْغَايَةِ الْمَطْلُوبَةِ، وَعَدَمُ مَعْرِفَةِ الطَّرِيْقِ الْمُوْصِلِ إِلَيْهَا.

وَانْعِدَامُ مَعْرِفَتِهِ بِذَلِكَ؛ إِمَّا جَهْلاً لِفَسَادِ نَظَرِهِ، وَإِمَّا جَهَالَةً لِفَسَادِ إِرَادَتِهِ.

[٦٠] هُمُوْمُ الْقَلْبِ عَوَاقِبُ الذَّنْبِ تَمْنَعُهُ عَمَّا فِيْهِ صَلاحُهُ، وَتَصَرُّفُهُ عَمَّا فِيْهِ نَجَاتُهُ. فَمَدَارُ النَّجَاحِ مُنَاطٌ بِتَبْدِيْدِ الْهُمُوْمِ بِالتَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ.

[٦١] الْهُمُوْمُ جُنُوْدُ الْخِذْلانِ تَهْجِمُ عَلَى الْقَلْبِ الْغَافِلِ؛ فَتَأْسِرُهُ وَتَحُوْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَمَالاتِ.

[٦٢] عَلَى قَدْرِ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِالدُّنْيَا تَنْشِبُ الْهُمُوْمُ أَنْيَابَهَا فِي أَدِيْمِهِ حَتَّى يَنْضُبَ دَمُهُ. وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيْلامُ.

[٦٣] الْفِتْنَةُ كَالْمَطَرِ يَسْقِي الأَرْضَ، وَكَمَائِنُ الْقُلُوبِ كَالْبَذْرِ، فَإِذَا تَمَّ سَقْيُهَا نَمَى الزَّرْعُ مِنْ جِنْسِ بَذْرِهِ حُلْوَاً أَوْ مُرَّاً، طَيِّبَاً أَوْ خَبِيْثَاً.

[٦٤] اطْرُوحَةُ الْوَطَنِيَّةِ فِي حَلِّ الأَزْمَةِ الْعِرَاقِيَّةِ خَبَلٌ شَرْعِيٌّ وَعَقْلِيٌّ وَسِيَاسِيٌّ؛ لأَنَّ كُلَّ مَنْ يُؤَمِّلُ نَتَائِجَاً فِي الْمُسْتَقْبَلِ مُقَدِّمَاتُهَا مَفْقُودَةٌ فِي الْوَاقِعِ فَهُوَ سَفِيْهٌ.

[٦٥] لِكُلِّ حِصَّةٍ مِنْ صَلاحِ الْقَلْبِ حِصَّةٌ مِنَ التَّوْفِيْقِ تُنَاسِبُهَا؛ فَأَسْعَدُ النَّاسِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ أَطْهَرُهُمْ قُلُوْبَاً.

[٦٦] الْحَصِيْفُ (وَقْتَ الْفِتْنَةِ) مَنْ يَجْعَلُ حَرَسَ حُدُوْدِ قَنَاعَاتِهِ مِنْ جُنْدِ الإِخْلاصِ تَحْتَ لِوَاءِ: (ابْتِغَاءِ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى).

فَالإِخْلاصُ أَعْظَمُ قَاطِعٍ لِتَسْرِيْبَاتِ الْهَوَى إِلَى الْقَلْبِ بِلا بُرْهَانٍ؛ لأَنَّهُ أَمِيْنٌ لا يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ.

[٦٧] دَوَاءُ الْفِتَنِ فِي فِطَامِ النُّفُوسِ عَنْ أَهْوَائِهَا، بِتَجَرُّعِ أَلَمِ الْفِرَاقِ سَاعَةً. وَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى أَلَمِ الْوِلادَةِ لَنْ يَظْفَرَ بِنَسْلِ السَّعَادَةِ.

[٦٨] بَصَرُ السُّفَهَاءِ فِي عُيُونِهِمْ يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَالْتَهَوْا غَافِلِيْنَ، وَبَصَرُ الْعُقَلاءِ فِي قُلُوبِهِمْ يَعْلَمُونَ بَاطِنَهَا وَحَقِيْقَتَهَا فَانْتَبَهُوا شَاكِرِيْنَ.

[٦٩] فِي الْفِتَنِ يَتَسَلَّلُ الْهَوَى إِلَى القَلْبِ بِأَقْنِعَةِ (الْمُتَشَابِهَاتِ)؛ فَتُمَرَّرُ بَعْضُ الْمَسَائِلِ إِلَى حَيِّزِ الْقَنَاعَةِ بِلا تَأْشِيْرَةِ دُخُولِ {قَلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ}.

[٧٠] يَا حَمَلَةَ الأَقْلامِ وَالدَّفَاتِرِ، إِنَّ القَلَمَ فَضَّاحٌ. وَفِي أَحْيَانٍ يَسْكُبُ مَعَ الْحِبْرِ السُّمَّ الزُّعَافَ؛ فَتَخْرُجُ الْكَلِمَاتُ ظَاهِرُهَا الرَّحْمَةُ وَبَاطِنُهَا الشَّرُّ الصُّرَاحُ.

[٧١] مَنْبَعُ الضَّلالُ مِن الاشْتِبَاهِ، وَهُوَ فِي الأَلْفَاظِ: تَحْرِيْفَاتٌ فَاسِدَةٌ. وَفِي الْمَعَانِي مَقَايِيْسُ كَاسِدَةٌ.

[٧٢] نَتَائِجُ الْمُقَدِّمَاتُ الصَّحِيْحَةِ مُحْكَمَةٌ، لَكِنَّ طَاحُونَةَ الْهَوَى تَخْلِطُهَا بِوَقَائِعَ مَغْلُوطَةٍ فَتُخْرِجُهَا: أَحْكَاماً جَائِرَةً، وَأَخْبَارًا كَاذِبَةً.

[٧٣] الْعِلْمُ اللِّسَانِي لا يَمْنَعُ زَلَلَ الأَفْهَامِ –ظُلْمَاً أَوْجَهْلاً–؛ لأَنَّهُ حُجَّةُ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ} [التَّوْبَة: ١١٥]. وَإِنَّمَا الْعِلْمُ الذِي يُوْجِبُ الْعِصْمَةَ هُوَ الْعِلْمُ الْقَلْبِيِّ الَّذِي يَسْتَجْلِبُ التَّوْفِيْقَ وَالْهِدَايَةَ.

[٧٤] طَرِيْقُ الْهِدَايَة لا يَسْلُكُهُ إلا مَنْ أَمَاتَ نَفْسَهُ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إلَى ذَكَائِهَا وَحِفْظِهَا وَكَثْرَةِ مَعْلُومَاتِهَا. بَلْ يَنْطَرِحُ عَلَى بِسَاطِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ بَيْنَ يَدَيْ الْعَلِيْمِ الْخَبِيْرِ.

[٧٥] إِذَا حَصَلَتِ الْفِتْنَةُ —خَيْراً أَوْ شَرَّاً— تَجَاذَبَهَا عَسْكَرَانِ: عَسْكَرُ الشَّيْطَانِ، وَالنَّفسِ. وَعَسْكَرُ الْمَلَكِ وَالْعَقْلِ.

فَالْعَسْكَرُ الشَّيْطَانِيّ يَسْعَى إِلَى إِفْسَادِ التَّصَوُّرِ وَالْعَمَلِ؛ بِاتِّبَاعِ الظَّنِّ وَالْهَوَى.

وَالْعَسْكَرُ الرَّحْمَانِيّ يَسْعَى إِلَى إِصْلاحِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ بِاتِّبَاعِ الْهدَى وَدِيْنِ الْحَقِّ.

[٧٦] إِنَّ اللَّبِيبَ يَحْذَرُ نَفْسَهُ أَكْثَرَ مِنْ عَدُوِّهِ، وَيَخْشَى ذَنْبَهُ أَكْثَرَ مِنْ ظُلْمِ خَصْمِهِ؛ لأَنَّ تَسَلُّطَ الْعَدُوِّ الظَالِمِ نِهَايَةٌ، بِدَايَتُهَا جَهْلُ الْعَبْدِ وَظُلْمُهُ. وَمِنْهُمَا يَنْشَأُ مَرَضُ الْقَلْبِ؛ فَإِنْ لَمْ يُدَاوِهْ صَارَ مَأْوَى لِكُلِّ شَهْوَةٍ غَوِيَّةٍ، وَشُبْهَةٍ خَفِيَّةٍ.

[٧٧] قَبُولُ النُّصْحِ دُوْنَ الْعَمَلِ بِهِ تَمْكِيْنٌ لِلْحُجَّةِ عَلَى النَّفْسِ وَقَطْعٌ لأَعْذَارِهَا؛ فَاعْمَلْ تَسْعَدْ.

[٧٨] الْفِتَنُ فَضَّاحَةٌ؛ وَذَلِكَ لأَنَّ بُذُورَ السَّيِّئَاتِ تَحْتَ تُرْبَةِ الْقَلْبِ لا تُدْرِكُهَا الأَبْصَارُ، فَإِذَا سُقِيَتْ بِمَاءِ الْهَوَى نَمَتْ حَتَّى تَصِيْرَ شَجَرَةً عَرِيْقَةَ الْجُذُورِ، وَعَلَى قَدْرِ أَغْصَانِهَا –ارْتِفَاعاً، وَانْتِشَاراً– تَمْتَدُّ جُذُورُهَا فِي الْقَلْبِ –عُمْقاً، وَاسْتِقْرَاراً–.

[٧٩] سُكْرُ الْمَفْتُونِ بِخَمْرَةِ الْهَوَى يُعْمِي بَصِيْرَتَهُ عَنِ الْوَاقِعِ، فَتَصْدُرُ مِنْهُ التَّصَرُّفَاتُ مُوَافِقَةً لِمُقْتَضَى مَيْلِهِ النَّفْسِيِّ، وَرَغْبَتِهِ بِلا مُرَاعَاةٍ لِلْحَقِّ الْوَاجِبِ فِي الْوَاقِعِ. فَهُوَ يَعْمَلُ مُنْقَادَاً لِلْحظِّ، لا اسْتِجَابَةً لِلْحَقِّ.

[٨٠] الْمُوَفَّقُ مِنَ الْعِبَادِ يُدْرِكُ أَنَّ الْهَوَى إِذَا تَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ فَإِنَّهُ يُدْخِلُهُ مَرْحَلَةَ (الْعَمَهِ الْفِكْرِيِّ)، وَهُوَ: تَفْكِيْرُهُ الْمُسْتَمَدُّ مِنْ مَادَةِ فَسَادِهِ. فَيَبْقَى فِي ظُلُمَاتِ الْهَوَى كَالَّذِي يَدُورُ فِي حَلْقَةٍ مُفْرَغَةٍ، قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَنَافِذُ النَّجَاةِ، وَلا عَاصِمَ إِلا اللهُ {وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الْبَقَرَةُ: ١٥].

[٨١] أَسْبَابُ اجْتِلابِ التَّوْفِيْقِ جِمَاعُهَا: (تَحْقِيْقُ التَّوْحِيْدِ)، (وَالتَّوْبَةُ مِنَ الذُّنُوبِ). {وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ} [الْمُدَّثِرُ: ٥٦].

[٨٢] كُلُّ عَبْدٍ لَهُ (رَأْيٌ)، (وَشَهْوَةٌ)، وَتَوْفِيْقُهُ وَخِذْلانُهُ مِنْ جِهَتَيْهِمَا، فَإِذَا اعْتَدَّ الْعَبْدُ بِرَأْيِهِ، وَعَمِلَ بِمُقْتَضَى شَهْوَتِهِ خُذِلَ. وَإِذَا عَصَمَهُ رَبُّهُ بِالْوَحْيِ – خَبَرَاً وَحُكْمَاً – وُفِّقَ.

[٨٣] الْمُجَادَلَةُ فِي الْفِتْنَةِ تُوْرِثُ الشُّكُوكَ؛ لأَنَّ الْجَدَلَ وَالْخُصُومَةَ، كَالْفُؤُوسِ الَّتِي تَضْرِبُ فِي أَعْمَاقِ الْقَلْبِ مَقْتَلِعَةً عُلُوْمَهُ: بِالتَّشْكِيْكِ، وَالتَّلْبِيْسِ، وَإِثَارَةِ الْمُغَالَطَاتِ، وَإِيْرَادِ الْمُتَشَابِهَاتِ.

[٨٤] الْكَيِّسُ الْفَطِنُ يَتَوَقَّى فِي الْفِتْنَةِ كُلَّ مُتْلِفٍ لِرَأْسِ مَالِهِ؛ فَلا يُقَامِرُ بِقَلْبِهِ مَهْمَا أَغْرَاهُ طَيْشُ الأَحْلامِ، وَزَهْوُ الأَقْلامِ؛ لأَنَّهُ يَخْشَى مِنَ الْمَلِكِ الْعَلَّامِ يَوْماً تَزِلُّ فِيْهِ الأَقْدَامُ.

[٨٥] الْمُخْلِصُ يُحِبُ الْعَمَلَ الْمُشْتَرَكِ وَيَجْتَهِدُ فِي أَدَاءِ مَا أُنِيْطَ بِهِ مِنْهُ، فَانْغِمَارُ أَعْمَالِهِ فِي جُهْدِ الْجَمَاعَةِ، وَخَفَاءُ عَمَلِهِ أَحْفَظُ لِقَلْبِهِ؛ لأَنَّ مَقْصُودَهُ ظُهُورُ الْحَقِّ، لا النَّفْسِ؛ لِمَحَبَّتِهِ مَوْلاهُ، وَقَمْعِهِ هَوَاهُ.

[٨٦] مِنْ عَجِيْبِ شَأْنِ الْهَوَى فِي هَذِهِ الْفِتَنِ؛ أَنَّهُ يُسْلَبُ مِنَ اللَّبِيْبِ عَقْلُهُ طَوَاعِيَّةً، فَيُرْخِي الْمَفْتُونُ عِنَانَ قُوَى الإِدْرَاكِ وَالتَّمْيِيزِ (لِسُلْطَانِ الْهَوَى)، فَيُعْمِلُ فِيْهَا مَعَاوِلَ الْهَدْمِ وَالتَّخْرِيْبِ وَالتَّغْيِيْرِ وَالإِفْسَادِ حَتَّى يُعْمِيَهُ وَيُصِمَّهُ وَيُبْكِمَهُ عَنِ الْحَقِّ الَّذِي يَعْرِفُهُ.

[٨٧] الْحُكْمُ بِالْعَدْلِ فِي النَّازِلَةِ يَبْدَأُ (بِالتَّصَوُّرِ الصَّحِيْحِ)، فَكُلُّ نَقْصٍ فِي التَّصَوُّرِ وَالْعِلْمِ بِالوَقَائِعِ وَالأَعْيَانِ وَأَحْوَالِهِمَا يُقَابِلُهُ نَقْصٌ فِي الرَّأْيِ وَالْحُكْمِ.

[٨٨] كُلُّ حَلْقَةٍ مَفْقُوْدَةٍ مِنْ حَلْقَاتِ التَّصَوُّرِ الوَاقِعِيِّ لِلأَشْخَاصِ أَوْ الْمَسَائِلِ أَوْ الأَحْدَاثِ يَذْهَبُ مَعَهَا جُزْءٌ مِنَ الْحَقِيْقَةِ يَفُوتُ بِحَسَبِهِ الْعَدْلُ فِي الْحُكْمِ وَالصِّدْقِ فِي الْخَبَرِ، وَمِنْ هَذَا الْخَلَلِ تَنْشَأُ الْفِتَنُ.

[٨٩] السَّلامَةُ فِي الثَّبَاتِ عَلَى الْحَقِّ، وَلَوْ تَقَطَّعَتْ فِي سَبِيْلِهِ أَوْصَالُكَ. وَالْعَطَبُ فِي الاغْتِرَارِ بِالْبَاطِلِ، وَلَوْ ظَفَرْتَ بِبَعْضِ آمَالِكَ.

[٩٠] حَقِيْقَةُ الْهَوَى: (مَحَبَّةُ النَّفْسِ) بِتَقْدِيْمِ حَظِّهَا عَلَى حَقِّ رَبِّهَا.

وَالتَّوْفِيْقُ أَنْ يَعْصِمَكَ اللهُ -تَعَالَى- مِنْ رَأْيِ نَفْسِكَ، وَشَهْوَتِهَا الْمُخَالِفَيْنِ لِلْوَحْيِ -خَبَراً وَحُكْمَاً-.

وَالخِذْلانُ أَنْ يُخَلِّيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا (فَتُصَدِّقَ آرَاءَهَا)، (وَتَعْمَلَ بِشَهَوَاتِهَا).

[٩١] الَّذِي يَنظُرُ فِي الشَّيْءِ طَالِبَاً الحُكْمَ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ عَلَى قَاعِدَةِ مَصَالِحِهِ الخَاصَّةِ يَنْشَأُ حُكْمُهُ بَعِيْداً عَنْ مَصَالِحِ الْمَنْظُورِ فِي حُكْمِهِ وَآثَارِهِ. وَهَذَا مَسْلَكُ الْمُنَافِقِيْنَ {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ، وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ}[النُّورُ : ٤٨ – ٤٩] .

[٩٢] الظَّفَرُ بِوَاجِبِ الْوَقْتِ مَحْضُ الْعُبُودِيَّةِ؛ لِتَجَرُّدِ حَقِّ اللهِ فِيْهَا وَصَفْوِّهَا مِنْ كَدَرِ الْحُظُوظِ.

[٩٣] احْذَرْ أَسْرَ الأَلْفَاظِ وَالْمُصْطَلَحَاتِ، فَالحُكْمُ عَلَى الشَّيْءِ بِمُجَرَّدِ لَفْظٍ أَوْ عِبَارَةٍ دُوْنَ التَّأَمُّلِ فِي الْمَعْنَى وَالدَّلالَةِ سِمَةُ أَنْصَافِ الْمُتَعَلِّمِيْنَ، وَالْجَهَلَةِ مِنَ الْمُقَلِّدِيْنَ.

[٩٤] الَّذِي يَبْنِي رَأْيَهُ عَلَى احْتِمَالٍ غَيْرِ مُعْتَبَرٍ يَكُونُ جَاهِلاً؛ لأَنَّ الحُكْمَ بِنَاءً عَلَى احْتِمَالٍ غَيْرِ ثَابِتٍ، وَلا مُعْتَبَرٍ هُوَ حُكْمٌ بِالظَّنِّ وَالتَّخْمِينِ، وَهُوَ حَقِيْقَةُ الْجَهْلِ وَعَدَمِ العِلْمِ.

[٩٥] الَّذِي يَبْنِي رَأْيَهُ عَلَى تَخَوُّفٍ سَبَبُهُ غَيْرُ وَاقِعٍ وَلا مُتَوَقَّعٍ بِطَرِيْقٍ مُعْتَبَرٍ يَكُونُ جَبَاناً؛ لأَنَّهُ يُحْجِمُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ يُوْجِبُ الإِحْجَامَ سِوَى خَوْفِهِ الْمَوْهُومِ: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ}[آلُ عِمْرَانَ: ١٧٥].

[٩٦] مَنِ امْتَطَى رَأْسَهُ فَقَدْ (أَفْسَدَ رَأْيَهُ)، (وَأَتْلَفَ نَفْسَهُ).

[٩٧] اجْتِنَابُ الرَّأْيِ فِي الْفِتْنَةِ أَوْجَبُ مِنِ اجْتِنَابِ السُّمُومِ فِي الطَّعَامِ؛ لأَنَّ الرَّأْيَ يُفْسِدُ كُلَّ شَيْءٍ: الأَدْيَانَ، وَالأَبْدَانَ، وَالبُلْدَانَ.

[٩٨] لِكُلِّ حِصَّةٍ مِنْ سَفَهِ عُقُوْلِ الْمُتَصَدِّرِيْنَ حِصَّةٌ تُقَابِلُهَا مِنْ فَسَادِ: الْعِبَادِ، وَالبِلادِ، وَالدِّيْنِ.

[٩٩] (الافْتِتَانُ) يَتَسَلَّلُ إِلَى الْقُلُوبِ عِنْدَ زُهْدَيْنِ:

(زُهْدٍ فِي الْحَسَنَاتِ)، (وَزُهْدٍ فِي الْجَنَاتِ).

[١٠٠] الَّذِي يَبْنِي رَأْيَهُ عَلَى تَحَرُّزَاتٍ مُتَكَلَّفَةٍ كَمَنْ يَلْبَسُ مَلابِسَ الشِّتَاءِ وَقْتَ الصَّيْفِ خَوْفاً مِنَ الْبَرْدِ يَكُونُ مَعْتُوْهاً؛ لأَنَّ التَّحَرُّزَ مِنَ الْعَدَمِ سَفَهٌ فِي الأَفْهَامِ، وَخَبَلٌ فِي الْعُقُول.

[١٠١] دَوَاءُ الْفِتَنِ لُزُومُ الاسْتِغْفَارِ، وَهِيَ أَمَارَةُ الصَّادِقِيْنَ؛ فَالانْشِغَالُ بِعَيْبِ النَّفْسِ يُصْلِحُ العَبْدَ، وَيُقَوِّي بَصِيْرَتَهُ بِعَيْبِ غَيْرِهْ. وَالانْشِغَالُ بِعَيْبِ الْغَيْرِ يُدِيْمُ فَسَادَ العَبْدِ، وَيُضْعِفُ بَصِيْرَتَهُ بِحَقِيْقَةِ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَاللَّبِيْبُ تَكْفِيْهُ الإِشَارَةُ، وَالْعَبْدُ يُقْرَعُ بِالْعَصَا.

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ

أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ .